من كليات رسائل النور



بديع الزمان
سعيد النورسي

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي



اسم الكتاب: أصول في فهم الأحاديث النبوية
سم المؤلف: بديع الزمان سعيد النورسي
اسم المترجم: إحسان قاسم الصالحي
اسم المطبعة: مطبعة الحوادث- بغداد - العراق
الطبعة : الاولى - ١٩٨٩م

من كليات رسائل النور

أصول في فهم الأحاديث النبوية

دفعاً للأوهام عنها

تأليف

بديع الزمان سعيد النورسي

ترجمة

احسان قاسم الصالحي

الغصن الثالث

من الكلمة الرابعة والعشرين

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرًا لشيء من الغموض الذي يَكتَنف فهمَ قسمٍ من الأحاديث الشريفة التي تَبحَث في «علامات الساعة وأحداثها» وفي «فضائل الأعمال وثوابها»، فقد ضعّفها عددٌ من أهل العلم المعتدّين بعقولهم، ووضعوا بعضها في عِداد «الموضوعات»؛ وتطرَّف آخرون من ضعاف الإيمان المغرورين بعقولهم فذهبوا إلى إنكارها. ونحن هنا لا نريد أن نناقشهم تفصيلًا، بل ننبِّه إلى «اثني عشر» أصلًا من الأصول والقواعد العامّة التي يُمكن الاستهداءُ بها في فهم هذه الأحاديث الشريفة موضوع البحث.

الأصل الأول «الدين امتحان»

وهو المسألة التي بيّنّاها في الجواب عن السؤال الوارد في نهاية «الكلمة العشرين» ومجملُها: أن الدِّين امتحان واختبار، يُميِّز الأرواحَ العالية من الأرواح السافلة؛ لذا يَبحَث في الحوادث التي سيَشهَدُها الناسُ في المستقبل بصيغةٍ ليست مجهولةً ومُبهمة إلى حدِّ استعصاء فَهمِها، وليست واضحةً وضوحَ البَداهة التي لا مَناصَ من تصديقها، بل يَعرِضُها عرضًا مُنفتِحًا على العقول، لا يُعجِزُها، ولا يَسلُبُ منها القدرةَ على الاختيار؛ فلو ظهرت علامةٌ من علامات الساعة بوضوح كوضوح البديهيات، واضطُرَّ الناسُ إلى التصديق، لَتَساوَى عندئذ استعدادٌ فِطريٌّ كالفحم في خساسته مع استعدادٍ فِطريٍّ آخرَ كالألماس في نَفاستِه، ولَضاع سرُّ التكليف وضاعت نتيجةُ الامتحان سُدًى.

فلأجل هذا ظَهَرت اختلافاتٌ كثيرة في مسائلَ

عديدةٍ، كمسائلِ المَهديّ(*) والسُّفياني(**)، وصَدَرت أحكامٌ مُتضارِبة لكثرةِ الاختلاف في الرِّوايات.

الأصل الثاني «طبقاتُ مسائلِ الإسلامية»

للمسائل الإسلامية طبقاتٌ ومراتبُ، فبينما تَحتاج إحداها إلى برهانٍ قطعيّ، كما في مسائل العقائد، تكتفي الأخرى بغَلَبة الظَّنّ، وأخرى إلى مجرَّد التسليم والقَبول وعدمِ الرَّفض.

(*) انظر: مسلم، الإيمان ٢٤٧؛ الترمذي، الفتن ٥٣؛ أبو داود، المهدي، ٤، ٦، ٧؛ ابن ماجه، الفتن، ٢٥، ٣٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٩٩.
قال الشوكاني في التوضيح: والأحاديث الواردة في المَهديّ التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يَصدُق وصف التواتر على ما هو دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمَهديّ فهي كثيرة أيضًا لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك. اهـ (الإذاعة لمحمد صديق حسن خان ١١٣ - ١١٤).

(**) انظر: الحاكم في المستدرك ٥٢٠/ ٤ والسيوطي في اللآلئ ٣٨٨/ ٢ والإسفراييني ٧٥/ ٢. والبداية والنهاية لابن كثير وتذكرة القرطبي.

لهذا لا يُطلَب برهانٌ قطعيٌّ وإذعانٌ يَقينيٌّ في كل مسألة من مسائلِ الفروع أو الأحداث الزمانية التي هي ليست من أُسُسِ الإيمان، بل يُكتفَى بالتَّسليم وعدمِ الرَّفض.

الأصل الثالث «معلوماتُ علماءِ أهل الكتاب»

لقد أسلم كثيرٌ مِن عُلَماء بني إسرائيلَ والنَّصارى في عهد الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، وحَمَلوا معهم إلى الإسلام معلوماتِهم السّابقة، فأُخِذَ وَهمًا غيرُ قليلٍ من تلك المعلومات السّابقةِ المخالفة لواقِعِ الحال كأنها من العلوم الإسلامية.

الأصل الرابع «الإدراج»

لقد أُدرج شيءٌ من أقوال الرُّواة، أو المعاني التي استَنبَطوها ضمن متن الحديث، فأُخِذت على عِلّاتها. ولَمَّا كان الإنسانُ لا يَسلَم من خطأ، ظهر شيء من تلك الأقوال والاستنباطاتِ مُخالِفًا للواقع، ممّا سبَّب ضعفَ الحديث.

الأصل الخامس «الإلهام»

اعتُبر بعضُ المعاني المُلهَمةِ للأولياء وأهل الكشفِ من المُحَدِّثين على أنها أحاديثُ، بناءً على أن في الأُمّة مُحَدَّثين،(*) أي: مُلهَمين. ومن المعلوم أن إلهامَ الأولياء قد يكون خطأً لبعض العَوارض، فيُمكِن أن يَظهَر ما يُخالفُ الحقيقةَ في أمثال هذا النَّوع من الرِّوايات.

الأصل السادس «الأمثال»

تَشتَهِر بعضُ الحكايات بين النّاس، فتجري تلك الحكايةُ مَجرَى الأمثال، والأمثالُ لا يُنظَر إلى معناها الحقيقيّ، وإنما يُنظَر إلى الهدف الذي يُساق إليه المَثَلُ، لهذا كان في بعض الأحاديث ذكرُ بعض ما تَعارَف عليه الناسُ من قِصصٍ وحكايات كنايةً وتمثيلًا على سبيل التوجيه والإرشاد. فإن كان هناك نقصٌ وقُصورٌ في المعنى الحقيقي

(*) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر». البخاري، فضائل أصحاب النبي ﷺ ٦؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٣.

في مثل هذه المسائل، فهو يعود إلى أعراف الناس وعاداتِهم ويَرجِع إلى ما تَسامَعوه وتَعارَفوا عليه من حكايات.

الأصل السابع «التشبيهات البلاغية»

هناك كثيرٌ من التَّشبيهات والتَّمثيلات البلاغية تُؤخَذ كحقائقَ مادِّيّة، إمّا بمرور الزَّمَن، أو بانتقالها من يَدِ العِلم إلى يَدِ الجهل، فيَقَع الناسُ في الخطأ من حُسبانِ تلك التَّشبيهات حقائقَ مادِّيّة.

فمثلًا: إن المَلَكين المُسَمَّيَينِ بالثَّور والحُوت، والمُتمثِّلَينِ على صورتَيهما في عالَم المِثال، وهما من ملائكة الله المُشرِفة على الحَيَوانات البرِّية والبَحرية، قد تَحَوَّلا إلى ثورٍ ضخم وحوتٍ مجسَّم في ظنِّ الناس وتَصَوُّرِهم الخطأ، ممّا أدَّى إلى الاعتراض على الحديث.(*)

ومثلًا: سُمِع صوتٌ في مجلس الرسول ﷺ، فقال:

(*) انظر: اللمعة الرابعة عشرة؛ وانظر: الحاكم، المستدرك ٤/ ٦٣٦. وقال: والحديث صحيح ولم يخرجاه؛ المنذري، الترغيب والترهيب ٤/ ٢٥٨. وقال: في متنه نكارة.

هـذا صـوتُ حَجَرٍ يَهـوي في جهنَّـم منـذ سـبعين خريفًـا، فـالآن حـينَ انتهـى إلى قَعرِهـا(*). فالـذي يَسـمَع بهـذا الحديث ولم تتبيَّن لـه الحقيقـةُ يُنكِرُه، فيَزيـغُ، ولكـن إذا عُلِـم مـا هـو ثابت قطعًـا، أنه بعد مُـدّة وَجيزة جـاء أحدُهم فأخبر النبـيَّ ﷺ أن المُنافـقَ الفُـلانيَّ المشـهور قـد مات قبل هُنَيهـة، عندئـذٍ يَتيقَّـن أنّ الرسـول ﷺ قـد صـوَّر ببلاغتـه النبويـة الفائقـة ذلـك المنافـقَ الـذي دَخَـل السـبعين مـن عُمُـرِه كحَجَـرٍ يتدحـرجُ إلى قَعْـرِ جهنَّـم، حيـث إن حياتـه كلَّهـا سـقوطٌ إلى الكُفـر، وتَـرَدٍّ إلى أسـفلِ سـافلين، وقـد أسـمعَ اللهُ سـبحانه ذلـك الصـوتَ في لحظـةِ مَـوتِ ذلـك المُنافِـق وجَعَلَـه علامـةً عليـه.

الأصل الثامن «حكمة الإخفاء»

يُخفي الحكيمُ العليم في دار الامتحان ومَيدانِ الابتلاء هذا، أمورًا مُهِمّةً جدًّا بين ثنايا كثرةٍ من الأمور. وترتبط بهذا الإخفاء حِكَمٌ كثيرة ومَصالحُ شتّى.

(*) انظر: مسلم، الجنة ٣١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ٣٤١، ٣٤٦.

فمثلًا: قد أخفى سبحانه وتعالى «ليلةَ القَدْرِ» في شهر رمضان، و«ساعةَ الإجابة» في يوم الجمعة، و«أولياءَه الصالحين» بين مَجاميع البَشَر، و«الأَجَلَ» في العُمُر، و«قيامَ السّاعة» في عُمُر الدُّنيا.. وهكذا، فلو كان أجَلُ الإنسان معيَّنًا ومعلومًا وقتُه، لقَضَى هذا الإنسانُ المِسكين نصفَ عُمُره في غَفلةٍ تامّة، ونِصفَه الآخَرَ مرعوبًا مدهوشًا كمن يُساقُ خطوةً خطوةً نحو حَبلِ المِشنَقة؛ بينما تقتضي المحافظةُ على التوزان المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحةُ بقاء الإنسان معلَّقًا قلبُه بين الرجاء والخوف، أن تكون في كل دقيقة تَمُرُّ بالإنسان إمكانُ حدوثِ الموت أو استمرارِ الحياة.. وعلى هذا يُرجَّح عشرون سنةً من عُمُرٍ مجهولِ الأَجَل على ألف سنةٍ من عُمُرٍ معلومِ الأَجَل.

وهكذا، فقيامُ الساعة، هو أَجَلُ هذه الدنيا، التي هي كإنسان كبير، فلو كان وقتُه معيَّنًا ومُعلَنًا لَمَضَت القرون الأولى والوسطى سادِرةً في نومِ الغفلة، بينما تظلُّ القرون الأخيرة في رُعبٍ ودَهشةٍ؛ ذلك لأن الإنسانَ

وطيدُ العلاقة بحياةِ مَسكَنِه الأكبر وبلَدِه الأعظم: الدنيا، بحكم حياته الاجتماعية والإنسانية، مِثلَما يَرتبِط بمَسكنِه وبلَده بحُكم حياته اليومية والشخصية.

نفهم من هذا أن القُربَ المذكور في الآية الكريمة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ لا يُناقِضُه مرورُ ألفِ سنةٍ ونيفٍ، إذ الساعةُ أجَلُ الدنيا. وما نِسبةُ ألفِ سنةٍ أو ألفين من السِّنين إلى عُمُر الدنيا إلّا كنِسبة يومٍ أو يومَين أو دقيقة ودقيقتين إلى سِني العُمُر.

وكذلك لا ينبغي أن يَغيبَ عن بالنا أنّ يوم القيامة ليس أجَلَ الإنسانية فحَسْبُ حتى يُقاسَ قُربُه وبُعدُه بمِقياس عُمُرِها، بل هو أجَلُ الكائنات والسَّماوات والأرض ذاتِ الأعمار المَهُولة التي تَنِدّ عن القياس والحِساب.

ولِأجل هذا فقد أَخفَى الحكيمُ العليم موعدَ قيام الساعة في عِلمِه بين المُغيَّبات الخمسة، وكان من حِكمةِ الإخفاء هذا أن يَخشَى الناسُ في جميع العصور قِيامَ السّاعة، حتى الصَّحابةُ الكرام رضوان الله عليهم كانوا أَشَدَّ خشيةً

من قيامها في زَمَنِهِم من غيرهم، مع أنهم كانوا يعيشون في خير القُرون، وهو قَرْنُ السَّعادة وانجِلاءِ الحَقائق، بل قال بعضُهم: إنّ أشراط السّاعة وعلاماتها قد تحقَّقَت. فالذين يَجهَلون حِكمةَ الإخفاء وحقيقتَه في الوقت الحاضر يقولون ظُلْمًا: كيف ظنَّ الصحابةُ الكرام رضوان الله عليهم قُرْبَ وقوعِ حقيقة مُهِمّة وخطيرة ستأتي بعد ألفٍ وأربعِ مئة سنةٍ، ظنُّوها قريبةً في عصرهم؛ علمًا بأنهم كانوا أَقدرَ المسلمين وأفضلَهم في إدراك معاني الآخرة، وأَحَدَّ المؤمنين بصيرةً وأرهَفَهم حِسًّا بإرهاصاتِ ما سيأتي به الزَّمَن؟ لكأنَّ فِكرَهم قد حاد عن الحقيقة ألفَ سنةٍ!

الجواب: لأن الصحابة الكرام -رضي الله عنهم أجمعين- كانوا أكثرَ الناس تَفَكُّرًا بالآخرة، وأرسخَهم يقينًا بفَناءِ الدنيا، وأوسَعَهم فِقهًا بحِكمةِ إخفاءِ الله سبحانه لوقت القيامة، وذلك بفَضلِ نُورِ الصُّحبة النبوية وفَيضِها عليهم، لذا كانوا مُنتَظِرين أَجَلَ الدنيا، مُتهيِّئين لمَوتها كمَن ينتَظِرُ أَجَلَه الشخصيَّ، فسَعَوا لآخرتهم سعيًا حثيثًا.

ثم إن تَكرارَ الرسول ﷺ: «..**فانتَظِروا السّاعةَ**»(*) نابعٌ من هذه الحكمة، حِكمةِ الإخفاء والإبهام، وفيه إرشادٌ نَبويٌّ بليغٌ، وليس تعيينًا لَموعدِ الساعة بالوحي، حتى يُظَنَّ بُعدُه عن الحقيقة، إذِ الحِكمةُ شيءٌ يَختلِف عن العِلّة. وهكذا فالأحاديث الشريفة التي هي من هذا القبيل نابعةٌ من حِكمةِ الإخفاء والإبهام.

وبناءً على هذه الحِكمة نَفسِها، فقد انتَظَر الناسُ منذ زَمَن مَديدٍ، بل منذ زمنِ التابعين، ظُهورَ المَهديِّ والدَّجّال السُّفيانيّ، على أَمَلِ اللَّحاق بهم، حتى قال قِسمٌ من الأولياء الصالحين بفَوات وَقتِهم!

فالحِكمةُ في عدم تعيين أوقات ظُهورِهم هي الحِكمة نفسُها في عدم تعيين يومِ القيامة. وتتلخَّص بما يأتي: إن كلَّ وقتٍ وكلَّ عصرٍ بحاجة إلى «معنى» المَهديّ الذي يكون أساسًا للقُوّة المَعنوية، وخلاصًا من اليأس. فيلزم أن يكون لكلِّ عَصْرٍ نصيبٌ من هذا المعنى. وكذلك

(*) انظر: البخاري، العلم ٢، الرقاق ٣٥؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٦١.

يجب أن يكون الناسُ في كلِّ عصر مُتيقِّظين وحَذِرين من شخصياتٍ شِرّيرةٍ تكون على رأس النِّفاق، وتَقُود تيّارًا عظيمًا من الشَّرّ، وذلك لئلّا يَرتَخِيَ عِنانُ النَّفس بالتسيُّب وعدمِ المُبالاة. فلو كانت أوقاتُ ظُهورِ المَهديّ والدَّجّال وأمثالِهما من الأشخاص مُعيَّنةً لَضاعَت مَصلَحةُ الإرشاد والتوجيه.

أمّا سِرُّ الاختلاف في الرِّوايات الواردة في حقِّهما فهو: أن الذين فَسَّروا تلك الأحاديثَ الشريفة قد أَدمَجوا استِنباطاتِهم واجتِهاداتِهم الشَّخصيةَ مع متن الحديث، كتفسيرِهم أن وَقائعَ المَهديِّ وأحداثَ الدَّجّال تَقَع حول الشّام والبصرة والكوفة حَسَبَ تَصوُّرِهم؛ إذ كانت تلك المُدُن تَقَع حولَ مركزِ الخِلافة يومئذٍ في المدينة المنوَّرة والشّام.

أو أنَّهم فَسَّروا تلك الأحاديث بأن الآثار العظيمة التي تُمثِّلُ الشخصيةَ المَعنوية لأولئك الأشخاص أو تَقُوم بها جَماعاتُهم، تَصَوَّروها ناشئةً من شخصيَّتِهم الذّاتية الفردية، ممّا أَدَّى إلى أن يُفهَم أن هؤلاء الأشخاصَ سيَظهَرون ظُهورًا خارقًا للعادة، فيَعرِفُهم جميعُ الناس، والحال -كما

قلنا- أن الدُّنيا مَيدانُ اختِبارٍ وامتحانٍ، وأن الله تعالى عندما يَختَبِرُ الإنسان لا يَسلُبُ منه الاختيارَ، بل يَفتَحُ البابَ أمام عَقلِه؛ لذا فهؤلاء الأشخاصُ -أي: الدَّجّالُ والمَهديُّ- لا يُعرَفون من قِبَل كثيرٍ من الناس عند ظُهورِهم، بل لا يَعرِفُ ذلك الدَّجّالُ الرَّهيبُ نَفسُه أنّه دَجّالٌ بادِئَ الأمرِ، وإنما يَعرِفُهم مَن يَنظُرُ إليهم بنُور الإيمان النافِذِ إلى الأعماق.

والدَّجّال الذي هو من علامات السّاعة أخبر عنه الرسول ﷺ أن يومًا من أيامِه كسَنةٍ، ويومًا كشهرٍ، ويومًا كجُمُعة، وسائرَ أيّامِه كأيّامِكم.(*) وأن الدُّنيا تَسمَعُ صَوتَه، ويَسيحُ في الأرض في أربعين يومًا.

فالذين لم يُنصِفوا قالوا: هذه الرِّواية ضَرْبٌ من المُحالاتِ! وأنكروها. حاشَ لله، بل إن حَقيقتَها -والعِلم

(*) الأحاديث في هذا الباب كثيرة نذكر منها: رواية مسلم: «قلنا يا رسول الله: ما لُبثه في الأرض؟ قال: أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامِه كأيامكم». (مسلم، الفتن ١١٠؛ أبو داود، الملاحم ١٤؛ الترمذي، الفتن ٥٩؛ ابن ماجه، الفتن ٣٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ٣٦٧، ٤/ ١٨١).

عند الله- هي الآتي: إن في الحديث الشريف إشارةً إلى ظُهورِ شَخصٍ من جِهةِ الشَّمال، الذي هو أَكثَفُ مَنطقةٍ لِعالَمِ الكُفرِ، يقودُ تيّارًا عظيمًا يَتَمَخَّض عن المادِّيةِ الجاحدة، ويدعو إلى الإلحاد وإنكارِ الخالق. فمعنى الحديث فيه إشارةٌ إلى ظُهورِ هذا الشخص من شَمالِ العالَمِ.

وتتضمَّنُ هذه الإشارة رمزًا حكيمًا وهو: أنّ الدائرة القريبةَ للقُطبِ الشَّمالي تكون السَّنةُ فيها يومًا وليلةً، حيث إنَّ سِتّةَ أشهُرٍ منها ليلٌ، والسِّتّةَ الأُخرَى نهارٌ. أي: يومُ الدَّجّال هذا سَنةٌ واحدةٌ كما ورد: «يومٌ كسَنةٍ». فهذه إشارةٌ إلى ظُهورِه قريبًا من تلك الدائرة. أمّا المُرادُ بـ«يومٌ كشَهرٍ» فهو أنه كلّما تَقدَّمنا من الشَّمال نحو مَناطِقِنا يكون النهارُ أحيانًا شهرًا كاملًا، حيث لا تَغرُب الشمسُ شهرًا في الصَّيف. وهذه إشارة أيضًا إلى تَجاوُزِ الدَّجّال إلى عالَمِ الحضارة بعد ظهوره في الشَّمال. وهذه الإشارةُ آتيةٌ من إسنادِ اليوم إلى الدَّجّال.. وهكذا كلّما اقتَرَبنا نزولًا من الشَّمال إلى الجنوب نَرَى الشَّمسَ لا تَغرُبُ أسبوعًا، إلى أن يكون الفَرقُ في الشُّروق والغُروبِ ثلاثَ ساعاتٍ، أي:

كأيّامِنا الاعتِيادية. وقد كنتُ في مكانٍ كهذا عندما كنتُ أسيرًا في روسيا، فكانت الشَّمسُ لا تَغرُبُ أُسبوعًا في مكانٍ قريبٍ مِنّا، حتى كان الناسُ يَخرُجون لِمُشاهَدةِ المَنظَرِ الغريبِ للغُروبِ.

أمَّا بلوغُ صوتِ الدَّجّال إلى أنحاء العالَم، وأنه يَطُوف الأرضَ في أربعين يومًا، فقد حَلَّتْها أجهزةُ الرّاديو والمُخابرة ووسائلُ النَّقلِ الحاضِرةُ من قِطاراتٍ وطائراتٍ. فالذين أنكروا هاتَينِ الحالتَينِ من المُلحِدين بالأمس وعدُّوهما من المُحالات يَرَونَها اليومَ من الأمور العادِيّة.

أمَّا يأجُوجُ ومأجُوجُ والسَّدُّ اللَّذانِ هما من علاماتِ السّاعة، فقد كَتَبتُ عنهما بشيء من التفصيل في رسالةٍ أخرى، أُحيلُ إليها(*)، أمّا هنا فأقولُ: إنّه مِثلَما دَمَّرتْ قبيلتا المانجور والمَغول بالأمس المُجتمعاتِ البشريةَ وكانوا السَّببَ في بناءِ سدِّ الصِّين، فهناك رواياتٌ تُشيرُ إلى أنه مع قُربِ قيامِ السّاعة ستَسقُط الحضارةُ الجديدة أيضًا

(*) انظر: الشعاع الخامس.

وتَنهارُ تحت ضَرَباتِ أقدامِ أفكارهم الإرهابيةِ والفَوضَوية المُرعِبة.

وهنا يتساءلُ عددٌ من المَلاحدةِ: أين هذه الطائفةُ من البَشَر، والتي قامَت وستقوم بمِثل هذه الأفعالِ؟

الجواب: كما أنّ الجَرادَ آفةٌ زراعية تكتَسِحُ مَنطِقة معيَّنة في مَوسمٍ مُعيَّن، ثم تَختَفي تَبَعًا لتبدُّلِ المَوسمِ. فإنّ خواصَّ تلك الأجناس التي أبادَتْ تلك المَنطِقةَ مَخبوءةٌ في حَنايا بعضِ أفرادٍ محدودين منها، فتَظهَرُ تلك الآفة نفسُها، بأمرٍ إلهيٍّ، في مَوسمٍ مُعيَّنٍ، وبكَثرةٍ ساحقةٍ، أي: إنّ حقيقة أجناسِها تَنزَوي ولا تَضمَحِلُّ، لِتَظهَر من جديد في مَوسمٍ مُعيَّن.

فكما أن الأمر هكذا في الجَراد، فإن الأقوام الذين أشاعوا الفسادَ في العالم في وقتٍ مّا، سيَظهَرون عند موعدٍ مُحدَّد لهم لإهلاك البشرية بأمرٍ إلهيٍّ وبمَشيئتِه سبحانه، فيُدمِّرون الحضارة البشرية مرّةً أُخرى، ولكنَّ إثارتَهم وتحريكَهم سيكون بنَمَطٍ آخرَ. ولا يَعلَم الغَيبَ إلّا اللهُ.

الأصل التاسع «وجهة المسائل الإيمانية»

إنّ حصيلة قسم من المسائل الإيمانية مُتوجِّهةٌ إلى أمورٍ تتعلَّق بهذا العالَمِ الضَّيِّق المُقيَّد، والقسمُ الآخرُ منها يرنو إلى العالَمَ الأُخرويِّ الواسع الطَّليق. وحيث إنَّ قسمًا من الأحاديث النبوية الواردة في فضائل الأعمال قد عبَّر عنها الرسولُ الكريم ﷺ بأسلوبٍ بلاغيٍّ يُناسِب الترغيبَ والترهيبَ، فقد ظنَّ مَن لا يُنعِمُ النَّظَرَ أن تلك الأحاديثَ الشريفة تَحمِلُ مُبالغةً! كلَّا، إنها جميعًا لَعَينُ الحقِّ ومحضُ الحقيقة، وليس فيها مبالغةٌ قطُّ.

مثال: إن الذي يَخرِشُ أذهانَ المُتعسِّفين ويُثيرُها هو الحديث الآتي: «**لو كانَتِ الدُّنيا تَعدِلُ عند الله جَناحَ بعوضةٍ ما شَرِب الكافرُ منها جُرعةَ ماءٍ**».(*) أو كما قال. وحقيقتُه هي:

أنّ كلمة «عند الله» تُعبِّر عن العالَمِ الباقي، فالنُّورُ المُنبَثِقُ من عالَمِ البقاء، ولو بمِقدار جَناحِ بعوضة هو أوسعُ وأعمُّ،

(*) الترمذي، الزهد ١٣؛ ابن ماجه، الزهد ٣؛ الحاكم، المستدرك ٤/ ٣٤١.

لأنه أَبَديٌّ، من نُورٍ مؤقَّت ولو كان يَملأ الأرضَ. أي: إن الحديثَ لا يَعقِدُ موازنةً بين جَناحِ البعوض والعالَمِ الكبير، وإنما المُوازَنةُ هي بين دُنيا كلِّ فردٍ، محصورةٌ في عُمُرِه القصير، وبين النُّور الدائم المُشِعّ، ولو بمِقدار جَناحِ بعوضةٍ من الفَيضِ الإلهيِّ وإحسانِه العَميمِ.

ثم إنّ الدُّنيا لها وجهان، بل ثلاثةُ أوجُهٍ:

الأول: وجهٌ كالمِرآة تَعكِسُ تَجَلِّياتِ الأسماء الحُسنَى.

والثاني: وجهٌ ينظُر إلى الآخرة، أي: أن الدُّنيا مزرعةُ الآخرة.

أمَّا الثالث: فهو الوجه الذي ينظُر إلى العَدَم والفناء، فهذا الوجه الأخير هو الدُّنيا غيرُ المَرضيّةِ عند الله، وهي المعروفة بدنيا أهل الضلالة.

إذًا، فالدُّنيا المذكورة في الحديث الشريف ليست بالدُّنيا العظيمة التي هي كمَرايا للأسماء الحُسنَى ورسائلَ صَمَدانية، ولا هي بالدُّنيا التي هي مزرعةٌ للآخرة؛ وإنما هي الدُّنيا التي هي نقيضُ الآخرة ومَنشَأ

جميع الخَطايا والذُّنوب، ومَنبَع كلِّ البلايا والمَصائب، هي دُنيا عَبَدَةِ الدُّنيا التي لا تَعدِل ذَرّةً واحدةً من عالَم الآخرة السَّرمَديِّ المَمنوح لعِباد الله المؤمنين. فأين هذه الحقيقةُ الصادقةُ الصائبة من فَهمِ أهل الإلحاد الظّالمِين لِما ظنُّوه مُبالغةً؟!

ومثال آخر: هو ما ذَهَب الملحدون وتَمادَوا فيه بتعسُّفِهم حين ظنُّوا أن ما ورد من الأحاديث الشريفة حول ثواب الأعمال وفضائل بعض السُّوَر في القرآن الكريم مبالغةً غيرَ معقولة، بل حتى قالوا: إنها مُحالة!

فقد وَرَد مثلًا أن سورة «الفاتحة» لها ثوابُ القرآن(*)، وسورة «الإخلاص» تَعدِل ثُلُثَ القرآن(**)،

(*) حديث: «**الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني الذي أُوتيتُه والقرآنُ العظيم**». انظر: البخاري، تفسير سورة الفاتحة ١، فضائل القرآن ٩؛ الترمذي، ثواب القرآن ١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/ ٢٢١.

(**) حديث: «**قل هو الله أحد تَعدِل ثلُثَ القرآن**». البخاري، فضائل القرآن ١٣؛ الترمذي، ثواب القرآن ١٠، ١١؛ أبو داود، الوتر ١٨؛ النسائي، الافتتاح ٦٩؛ ابن ماجه، الأدب ٥٢.

وسورة «الزلزال» رُبُع القرآن،(*) وسورة «الكافرون» ربع القرآن(**)، وسورة «يس» لها ثوابُ عشَرةِ أمثال القرآن.(***) فالذين لا يُنعِمون النظرَ وليس لهم إنصاف وتَرَوٍّ يَدَّعون استحالةَ هذه الروايات! إذ يقولون: كيف تكون لِسُورةِ «يس» هذه الفضيلةُ وهي سورةٌ من القرآن الكريم وهناك سُوَرٌ أخرى فاضلة؟!

(*) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوَّجتَ يا فلان؟ قال: لا والله، ولا عندي ما أتزوَّج به، قال: أليس معك «قل هو الله»؟ قال: بلى. قال: ثُلُثُ القرآن. قال: أليس معك «إذا جاء نصر الله والفتح»؟ قال: بلى. قال: رُبُع القرآن. قال: أليس معك «قل يا أيها الكافرون»؟ قال: بلى. قال: رُبُع القرآن. قال: أليس معك «إذا زلزلت الأرض»؟ قال: بلى قال: رُبُع القرآن. قال: تزوَّج تزوَّج..» الترمذي، ثواب القرآن ١٠؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ١٤٧، ٢٢١.

(**) حديث ابن عمر: «قل هو الله أحدٌ تَعدِل ثُلُثَ القرآن، وقل يا أيها الكافرون تَعدِل رُبُعَ القرآن». الترمذي، ثواب القرآن ١٠؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ١٤٧، ٢٢١.

(***) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلبًا، وقلبُ القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءةَ القرآن عشر مرات». الترمذي، ثواب القرآن ٧.

إن حقيقة هذه الروايات هي: أنّ لكلِّ حرفٍ من حروف القرآن الكريم ثوابًا، وهو حسنة واحدة،(*) ولكن بفضل الله وكَرَمِه يَتضاعَف ثوابُ هذه الحروف ويُثمِر حينًا عَشْرَ حسَنات، وأحيانًا سبعين، وأخرى سبعَ مئةٍ (كما في حروفِ آية الكُرسيّ) ورابعة: ألفًا وخمسَ مئة (كما في حروف سورة الإخلاص) وخامسة: عَشَرةَ آلافِ حسَنة (كقراءة الآيات في الأوقات الفاضلة وليلةِ النِّصف من شعبان) وسادسة: ثلاثين ألفًا من الحَسَنات (كما في قراءة الآيات في ليلة القدر) فتتضاعفُ هذه الحسَناتُ كما تتكاثر بُذورُ الخَشخاش. ويُمكِن فَهمُ تَضاعُفِ الثواب إلى ثلاثين ألفًا من الآية الكريمة: ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ (القدر:٣).

وهكذا، فلا يُمكِن مُقايَسةُ ولا مُوازَنة القرآن الكريم مع وجود هذا التَّضاعُفِ العَدَديّ التَّصاعُديّ للثواب المذكور، وإنما يُمكِن ذلك مع أصل الثواب لبعض السور.

(*) الترمذي، فضائل القرآن ١٦؛ الدارمي، فضائل القرآن ١.

ولنوضِّح ذلك بمثال: لِنَفرِض أن مزرعةً زُرِعت فيها ألفُ حَبّة من الذُّرَة، فلو أَنبتَت بعضُ حَبّاتها سبعَ سنابلَ (عرانيسَ) في كل سُنبُلة مئةُ حَبّة، فإن حَبّةً واحدة من الذُّرَة تَعدِل عندئذٍ ثُلثَي ما في المزرعة؛ ولو فرضنا مثلاً، أن حَبّةً أخرى أَنبتَت عشرَ سَنابلَ (عرانيسَ) في كلِّ سُنبُلة منها مِئتا حَبّة، فإن حَبّةً واحدة عند ذلك تُساوي ضِعفَ الحبوب المزروعة أصلاً.. وهكذا قِسْ في ضوء هذا المِثال.

فالآن نتصوَّرُ القرآنَ الكريم مزرعةً سماويةً نُورانية مُقدَّسة، كلُّ حرف فيه مع ثوابه الأصلي بمَثابة حَبّة واحدة، بغضِّ النَّظَر عن سَنابلِها، فإذا ما طَبَّقتَ هذا على المثال السابق يُمكِنُك معرفةُ فضائل السور التي وَرَدَتْ بحَقِّها الأحاديثُ الشريفة، بمقارَنَتِها بأصلِ حروف القرآن.

مثال ذلك: إن حُروفَ القرآن الكريم ثلاثُ مئةِ ألفٍ وسِتُّ مئةٍ وعِشرون حرفًا، وحروفَ سورة الإخلاص مع البسملة تِسعٌ وسِتُّون حرفًا، فثلاثةُ أضعافِ تسعٍ وستِّين تساوي مئتين وسبعةَ حروفٍ. أي: إن حسَنات كلِّ حرفٍ من حروف سورة الإخلاص تُقارِب ألفًا وخمسَ مئةٍ

حسنةٍ. وكذلك إذا حسَبْتَ حروفَ سورة «يس» وأخذتَ النِّسبة بينها وبين مجموع حروف القرآن، وأخذنا التَّضاعُفَ إلى عشَرةِ أمثالِها بنَظَرِ الاعتبار، نجدُ أن لكل حرف فيها ما يُقارِب من خمسِ مئةِ حسنةٍ.

فإذا قِسْتَ على هذا المِنوال بقيةَ ما ورد في فضائل السُّوَر في الأحاديث فستُدرِك مدى كونها حقيقةً صائبة لطيفة، ومدى بُعدِها عن كلِّ ما يُومِئُ إلى المبالَغةِ والإسراف في الكلام.

الأصل العاشر «بلاغة الإرشاد»

قد يَظهَر أفرادٌ من الناس لهم خَوارقُ في الأعمال والأفعال، كما يَحدُث في أكثرِ طوائف المخلوقات، فإن كان الفردُ الفَذُّ هذا قد سبق الآخرين وبَزَّهم في الخير والصَّلاح، فسيكون مَبعَثَ فخرٍ لبني جِنسِه ومَدارَ اعتزازِهم، وإلّا فهو نذيرُ شُؤمٍ وبلاءٍ عليهم. فكلٌّ من هؤلاء الأفذاذ يَنبَثُّ كشخصية معنوية في كل مكان في المُجتمَع، ويحاول الآخرون تقليدَه في أفعاله ويَجِدُّون لبُلُوغِ شَأوِه، وربما يَبلُغ

واحدٌ منهم مَبلَغَه في هذا الفعل أو ذاك. فالقضيةُ إذًا من حيث المَنطقُ هي قضيةٌ «مُمكِنة»، لإمكان وجود ذلك الفرد الخارق في كل مكان، وجودًا مَخفِيًّا ومُطلَقًا. أي: إنه أصبح شخصًا كُليًّا بعَمله هذا، أي: من المُمكِن أن يولِّد هذا النوعُ من العمل نتيجةً كهذه.

فانظر في ضوء هذا المثال إلى أحاديثَ نبويةٍ شريفةٍ ورَدَت بهذه المعاني: مَن صلَّى ركعتَينِ كذا فله أَجرُ حَجّة(*). أي: ثوابُ ركعتَينِ في أوقاتٍ معيَّنةٍ يُقابل حَجّةً، هذه حقيقة ثابتة. فيجوز إذًا أن تَحمِلُ كلُّ ركعتَينِ من الصلاة بالكلِّية هذا المعنى، ولكنَّ الوقوع الفعليَّ لهذا النوع من الرِّوايات ليس دائمًا ولا كُليًّا، حيث إن للقبول شرائطَه المعيَّنةَ؛ لذا تَنتَفي من أمثال هذه الرِّوايات صفةُ الكُلِّية والدَّيمومة، فهي إمّا بالفِعل مؤقّتةٌ مطلقة؛ أو هي قضيةٌ مُمكِنة، كُلِّية؛ والكُلِّية في أمثال هذه الأحاديث هي من حيثُ الإمكانُ الاعتباريّ، كما هو في: «**الغِيبةُ كالقَتل**».(**) أي: يكون

(*) انظر: الترمذي، الجمعة ٥٩.

(**) الديلمي، المسند ٣/ ١١٦.

الفردُ بالغِيبة سُمًّا زُعافًا قاتلًا؛ وكما هو في: «**الكلمةُ الطيِّبةُ صدقةٌ كعِتقِ رَقبةٍ**».(*)

والحِكمةُ في إيراد هذه الأحاديث بهذه الصِّيغة هي: إبرازُ إمكانية وقوعِ هذه الصِّفة المعنوية الكاملة في كل مكان وفي صُورَتِها المُطلَقة، لأنه أبلغُ في الترغيب والترهيب وأكثرُ حضًّا للنُّفوس على الخير، وأشدُّ تجنيبًا لها من الشَّرّ.

ثم إنّ شؤون العالم الأبَديِّ لا تُوزَن بمَقاييسِ عالَمِنا الحاضر، إذ إنّ أضخمَ ما عندنا يُمكِن أن يكون أصغرَ شيء هناك ولا يُوازيه، فثوابُ الأعمال نظرًا لكونه يَتطلَّع إلى ذلك العالَمَ الأبديّ فإن نَظرَتَنا الدنيويةَ الضيِّقة تَغدُو قاصرةً دونه، فنَعجِزُ عن أن نَستوعِبَه بعُقولِنا المحدودة.

فمثلًا: هناك روايةٌ تَلفِتُ أنظارَ من لا يُدقِّقون النَّظَرَ ولا يُنصِفون في أحكامهم، هي: «**مَن قرأَ هذا أُعطيَ مثلَ ثوابِ موسى، وهارون**»، أي: «**الحمدُ لله ربِّ السَّماوات**

(*) الطبراني، المعجم الكبير ٧/ ٢٣٠؛ البيهقي، شعب الإيمان ٦/ ١٢٤.

وربِّ الأرَضينَ ربِّ العالَمين، وله الكِبرياءُ في السَّماوات والأرض وهو العزيزُ الحكيم؛ الحمدُ لله ربِّ السَّماوات وربِّ الأرَضينَ ربِّ العالَمين، وله العَظَمةُ في السَّماوات والأرض وهو العزيزُ الحكيم، وله المُلكُ ربُّ السَّماوات وهو العزيزُ الحكيم».

فحقيقةُ أمثالِ هذه الأحاديث التي تُثيرُ الأذهانَ هي: أننا لا نُدرِكُ مدى الثواب الذي يَنالُه نَبيّانِ عظيمان هما موسى وهارون عليهما السلام إلّا حَسَبَ تَصوُّرِنا ووَفقَ إطار فِكرِنا الضَّيّق، وضِمنَ حدودِ نَظَرِنا القاصر الدنيويّ؛ لذا فحقيقةُ الثواب الذي يَنالُه عبدٌ عاجِزٌ مُطلَقَ العَجزِ بقراءته ذلك الوِردَ، من ربٍّ رحيم واسِعِ الرحمة، في حياة خالدة أبديةٍ، يُمكِن أن يكون مُماثِلًا لذلك الثواب الذي تَصوَّرناه بعُقولِنا القاصرةِ للنبيَّينِ العظيمَينِ، وذلك حَسَبَ دائرة عِلمِنا وأُفُقِ تَفكيرِنا.

مثَلُنا في هذا كمَثَل بَدَوِيٍّ لم يَرَ السُّلطانَ ولا يُدرِكُ عَظَمتَه وأُبَّهتَه، وفي نَظَره المحدودِ وفِكرِه الضيِّق أن السُّلطان شخصٌ كشيخِ القريةِ أو أكبرُ منه بقليل؛ حتى

لقد كان حوالَينا -في شرقيِّ الأناضول- قَرَوِيُّون سُذَّجٌ يقولون: إن السُّلطان يَجلِسُ قُربَ المَوقِد ويُشرِف على طَبيخِه بنفسه.. بمعنى أن أقصى ما يتصوَّرُه البَدوِيُّ لِعَظَمة السُّلطان لا يَرقَى إلى مُستوَى آمِرِ فوجٍ في الجيش.. فلو قيل لأَحَدِ هؤلاء: إذا أنجَزتَ لي هذا العَمَلَ فسأُكافِئُك برُتبةِ السُّلطان (أي: بمكانة آمِرِ الفَوج)، فهذا القولُ حقيقةٌ وصواب، حيث إن عظَمةَ السُّلطان في ذِهنِ السّامع وفي فِكرِه المَحدودِ هي بمِقدارِ عَظَمةِ آمِرِ الفَوجِ ليس إلّا.

وهكذا، فنحن لا نكادُ نَفهَم حتى بمِثلِ هذا البدَويِّ الحقائقَ الواردة في ثوابِ الأعمال المُتوجِّهة إلى الآخرة، بعُقولِنا الضيِّقة وبأفكارنا القاصِرة وبنَظَرِنا الدُّنيويِّ الكَليل؛ إذ إن ما في الحديث الشريف ليس هو عَقدًا لمُوازَنةٍ بين الثوابِ الحقيقيِّ الذي يَنالُه موسى وهارون عليهما السلام، والذي هو مجهولٌ لدينا، وبين الثواب الذي يَنالُه العبدُ الذاكِرُ للوِردِ؛ لأن قاعدة التشبيه هي قياسُ المجهول على المعلوم، أي: إدراكُ حُكْمِ المجهول من حُكْمِ المعلوم. أي: إن المُوازَنة هي بين ثوابهما

«المعلوم» لدينا حَسَبَ تصوُّرِنا، والثوابِ الحقيقي للعبد الذاكِرِ «المجهول» عندنا.

ثم إنّ صورة الشمس المُنعكِسةَ من سطحِ البحر ومن قَطْرةِ ماءٍ هي الصورةُ نفسُها، والفرق في النوعية فقط. فكلاهما يَعكِسان صورةَ الشمس وضَوءَها، لذا فإن رُوحَ كلٍّ من موسى وهارون عليهما السلام التي هي مرآةٌ صافيةٌ كالبحر تَنعَكِس عليها من ماهية الثواب ما يَنعَكِس على رُوحِ العبد الذاكِر التي هي كقَطْرة ماء. فكلاهما ثوابٌ واحدٌ من حيث الماهِيّة والكمِّية، إلّا أن النوعية تَختَلِف، إذ تَتْبَعُ القابِلِيّةَ.

ثم إنّ ترديد ذِكرٍ وتسبيح مُعيَّن، أو تلاوة آية واحدة قد تَفتَح من أبواب الرحمة والسعادة ما لا تَفتَحُه عبادةُ ستِّين سنةً، أي: إن هناك حالاتٍ تَمنَح فيها آيةٌ واحدة من الفوائد ما للقرآنِ الكريم كلِّه.

ثم إنّ الفُيوضات الربّانيةَ المُتجلِّيَةَ على الرسول الكريم ﷺ بتلاوته آيةً واحدة قد تكون مُساويةً لفَيضٍ إلهيٍّ كاملٍ

على نبيٍّ آخَرَ؛ إذ هو ﷺ موضعُ تَجَلِّي الاسم الأعظم. فإذا قيل: إنّ العبد الذّاكِر قد تَعرَّض إلى نفحةٍ من ظلِّ الاسم الأعظم بفضل وِراثةِ النُّبوّة ونال ثوابًا بها بمِقدارِ قابليَّتِه، بقَدْرِ الفَيض الإلهيِّ على نبيٍّ آخر، فليس في قوله خلافٌ للحقيقة قطُّ.

ثم إنّ الثوابَ والأجر من عالَمِ النُّور الخالد، الذي يُمكِن أن ينحَصِر عالَمٌ منه في ذَرّة واحدة، بمِثلِ انحصار صورةِ السَّماوات بنُجومِها في قطعةٍ صغيرة من زجاج ورُؤيتِها فيها. وهكذا فقراءةُ آيةٍ واحدة أو ذِكرٍ مُعيَّن بنيةٍ خالصةٍ يُمكِن أن تُولِّد شفافيةً في الروح ـ كالزجاج ـ تستَطيع أن تَستَوعِب ثوابًا نُورانيًّا كالسَّماوات الواسعة.

النتيجة: أيُّها الناظر إلى كلِّ شيء بعَينِ النَّقدِ والتجريح ومن دون تدقيق، ويا ذا الإيمان الواهي والفِكرِ المَملوءِ بالفلسفة المادِّيّة.. أنصِفْ قليلًا.. أَدِمِ النظرَ في هذه الأصولِ العَشَرة، وإياك أن تَمُدَّ إصبعَ اعتراضك إلى الأحاديث الشريفة وبدوره إلى ما يُخِلُّ بمَرتَبةِ عِصمةِ النُّبوّة

للرسول الكريم ﷺ بحُجّةِ ما تراه في روايةٍ من خلافٍ قطعيٍّ للواقع ومنافاةٍ للحقيقة.

فهذه الأصول العشَرة، وميادينُ تطبيقها تَجعَلُك تتخلّى عن الإنكار، وتَكفُّك عن الرَّفض أوَّلًا. ثم تُخاطِبُك: إن كان هناك تقصيرٌ حقيقيّ، فهذا راجِعٌ إلينا (أي: إلى الأصول)، وليس إلى الحديث الشريف قطعًا، وإن لم يكن ثَمّةَ تقصيرٌ حقيقيّ فهو يَعُود إلى سُوءِ فَهمِك أنت!

وحاصل الكلام: إن مَن يَستَرسِلُ في الإنكار والرَّفض، عليه أن يُفنِّد الأصولَ العشَرةَ المذكورة، وإلّا فلا يستطيع الإنكارَ؛ فإن كُنتَ مُنصِفًا حقًّا فتأمَّلْ جيِّدًا في هذه الأصول العشَرةِ، ومن بعدها لا تَنهَضْ لإنكار حديثٍ نبويٍّ يراه عَقلُك مُخالِفًا للحقيقة، بل قل: **ربما هناك تفسيرٌ له، أو تأويلٌ، أو تعبيرٌ.. ودَعِ الاعتراضَ!**

الأصل الحاديَ عشرَ «المتشابهات»

كما أنّ في القرآن الكريم آياتٍ متشابهاتٍ تَحتاجُ إلى تأويلٍ أو تَطلُب التسليمَ المُطلَقَ، كذلك في الحديث

الشريف مُشكِلاتٌ تحتاجُ أحيانًا إلى تفسيرٍ وتعبيرٍ دقيقَين. ويُمكِنُك الاكتفاء بالأمثلة المذكورة.

نعم، إن اليَقِظَ يستطيع أن يُعبِّر عن رؤيا النائم، بينما النائمُ الذي يَسمَع مَن حولَه من اليقِظِين قد يُطبِّق كلامَهم بشكل مّا في منامه، فيُعبِّر عنه بما يُلائمُه في النوم.

فيا أيُّها المُنوَّم بالغفلة والفلسفة المادية، ويا عديمَ الإنصاف.. إنّ الذي يقول الله تعالى في حقِّه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم:١٧)، والذي يقول عن نفسِه: «**تَنامُ عيناي ولا يَنامُ قلبي**»(*) هو اليقظانُ الحقيقيّ، فلا تُنكِر ما يراه هو، بل عَبِّر عنه وجِدْ له تعبيرًا في رؤياك، والتَمِس له تفسيرًا؛ إذ لو لَسَعَتْ بعوضةٌ شخصًا نائمًا، فإن آثار ذلك تَظهَر عليه وكأنه قد جُرِح في الحرب، وإذا ما استُفسِر عنه بعد صَحْوِه، فسيقول: نعم كنتُ في حَربٍ داميةٍ والمَدافعُ مُصَوّبة نحوي! بينما اليَقِظون الذين حولَه يأخُذون اضطِرابَه هذا مأخَذَ الاستهزاء. فنظرُ الغَفْلة المنوِّمة وفكرُ

(*) انظر: البخاري، التراويح ١، المناقب ٢٤، التهجد ١٦؛ مسلم، المسافرين ١٢٥.

الفلسفة المادِّية لا يُمكِن أن يكونا قطعًا مَحَكًّا للحقائق النبوية.

الأصل الثانيَ عشرَ «اختلاف زاوية النظر»

إنّ نظر النُّبوّة والتوحيد والإيمان يَرَى الحقائقَ في نور الألوهية والآخرةِ ووَحدةِ الكون، لأنه مُتوجِّهٌ إليها، أمّا العلمُ التَّجريبيُّ والفلسفة الحديثة فإنّه يرى الأمورَ من زاوية الأسباب المادِّية والكثرة والطبيعة، لأنه مُتوَجِّهٌ إليها؛ فالمسافة إذًا بين زاويتَيِ النَّظَر بعيدةٌ جدًّا، فرُبَّ غايةٍ عظيمةٍ جليلة لدى أهل الفلسفة، تافهةٌ وصغيرة لا تكاد تُرَى بين مقاصد علماءِ أصولِ الدِّين وعلم الكلام؛ ولهذا فقد تقدَّم أهلُ العِلم التجريبيِّ كثيرًا في معرفة خواصِّ الموجودات وتفاصيلها وأوصافها الدقيقة، في حينِ تَخَلَّفوا كثيرًا حتى عن أبسط المؤمنين وأقلِّهم عِلمًا في مجال العِلم الحقيقي، وهو العلومُ الإلهية السّامية والمعارفُ الأُخروية.

فالذين لا يُدرِكون هذا السِّرَّ، يَظنُّون أنّ علماء الإسلام مُتأخِّرون عن علماء الطبيعة والفلاسفة، والحال أن مَن

انحدَرَت عقولُهم إلى عيونهم وأصبحوا لا يُفكِّرون إلّا بما يَرَون، وغَرِقوا في الكثرة من المخلوقات، أنّى لهم الجُرأةُ ليَلحَقوا بوَرَثةِ الأنبياء عليهم السلام الذين بلَغُوا المقاصدَ الإلهية السامية وغاياتِها الرفيعةَ العالية؟!

ثم إن الرُّؤية إن كانت من زاويتَينِ مُختلفتَينِ، فلا شكَّ من ظهور حقيقتَينِ متباينتَينِ، وقد تكون كلتاهما حقيقةً. وحتمًا لا تتعارضُ حقيقةٌ علمية قاطعة مع حقائق النصوص القرآنية المُقدَّسة، إذِ اليَدُ القصيرة للعِلم التجريبيِّ قاصرةٌ عن بلوغ أهدابِ طَرَفٍ من حقائق القرآن الرفيعة المُنزَّهة. وسنُورد مثالًا واحدًا فقط على هذا:

حقيقةُ الكرة الأرضية في نَظَر أهل العلم هي: أنها إحدى السَّيّارات ذاتِ الحجم المتوسِّط، تدور حول الشمس، وهي جِرمٌ صغير قياسًا بالكواكب والنجوم التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى. أمّا إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية بنَظَر أهل القرآن، فحَقيقتُها هي كما وضَّحَتْها «الكلمة الخامسة عَشْرةَ»:

إنّ الإنسان الذي هو ألطفُ ثَمَرةٍ للعالَم، ومعجزةٌ جامعة من معجزات القادر الحكيم، وأبدعُ المخلوقات وأعزُّها وألطفُها، مع أنه أعجزُها وأضعفُها.. هذا الإنسان يعيش على هذه الأرض، فالأرض إذًا مَهدٌ لهذا الإنسان، فهي مع صِغَرِها وحقارتها قياسًا إلى السّماوات عظيمةٌ وجليلة من حيث المعنى والمَغزَى والإبداع؛ حتى أصبحَت بالمنظور القرآني: قلبَ الكون ومركزَه من حيث المعنى.. ومَعرِضَ جميع المصنوعات المعجزة.. وموضعَ تجلِّي الأسماء الحسنى كلِّها، حتى لَكأنَّها البؤرةُ الجامعة لتلك الأنوار.. ومَحشرَ الأفعال الربّانية المُطلَقة ومرآتَها.. وسُوقًا واسعةً لإبراز الخَلّاقيّة الإلهية المُطلَقة، ولا سيما إيجادُها الكثرةَ الهائلةَ من النباتات والحيَوانات الدقيقة بكل جُودٍ وكَـرَم.. ونموذجًا مصغَّرًا لمصنوعات عالَمِ الآخرة الواسِعِ الفسيح.. ومَصنَعًا يَعمَلُ بسرعة قُصوَى لإنتاج منسوجاتٍ خالدةٍ.. ومَوضعَ عرضٍ لنَماذِجِ المَناظِرِ السَّرمدية المُتبدِّلةِ بسُرعةٍ فائقة.. ومزرعةً ضيِّقةً مؤقَّتةً لاستنبات بُذَيراتٍ تُربَّى بسرعةٍ للبساتين الخالدة الرائعة.

لهذا كلِّه يَجعَلُ القرآنُ الكريم الأرضَ صِنوًا للسَّماوات، من حيث عَظَمَتُها معنًى وأهمِّيتُها صنعةً، وكأنها ثمرةٌ صغيرة لشجرة ضخمة، وكأنها قلبٌ صغير لجَسَد ضَخم؛ فيَذكُرُها القرآنُ الكريم مقرونةً بالسّماوات، فهي في كِفّة والسّماواتُ كلُّها في كِفّة، فتُكرِّرُ الآيةُ الكريمة: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ .

وهكذا فقَسْ سائرَ المسائل على هذا المِنوال، وافهَم: أنّ الحقائق الميتة المُنكفِئةَ للفلسفة لا يُمكِنُها أن تتصادم مع حقائق القرآن الحيّةِ والمُنوَّرة، فكلتاهما حقيقةٌ، إلّا أنّ الاختلاف هو في زاوية النَّظَر، فتظهر الحقائقُ متباينةً.

* * *

المسألة الثانية

من المكتوب الثامن والعشرين

مناقشة حديث شريف

كتبتُ هذه المسألةَ لأجل حَلِّ الإشكال ورفعِ المُناقَشة الدائرة حولَ حديثٍ شريف(*) يُذكَر فيه أن سيِّدنا موسى عليه السلام قد لَطَم عينَ سيِّدنا عِزرائيلَ عليه السلام.

(*) نص الحديث الذي دارَت حوله المناقشة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُرسِل مَلَكُ الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صَكَّه، فرَجَع إلى ربِّه، فقال: أرسلتَني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموتَ. فردَّ الله عز وجل عليه عينَه، وقال: ارجِع فقُل له يَضَعُ يدَه على متنِ ثَورٍ، فله بكلِّ ما غطَّت به يدُه بكلِّ شعرةٍ سنةٌ، قال: أي ربِّ ثم ماذا؟ قال: ثم الموتُ. قال: فالآن. فسأل اللهَ أن يُدنِيَه من الأرض المقدَّسة رَميةً بحَجَر. قال: قال رسول الله ﷺ: «فلو كنتُ ثَمَّ لأَرَيتُكم قبرَه إلى جانب الطريق عند الكَثيبِ الأحمر». البخاري، الجنائز ٦٨، الأنبياء ٣١؛ مسلم، الفضائل ١٥٧.

طَرَق سمعي أنَّ مُناقشةً عِلميةً جَرَت في «أگريدير».(*)
إنَّ إجراء تلك المُناقشة خطأٌ، ولا سيَّما في هذا الوقت بالذّات.

وقد سُئِلتُ أنا أيضًا -ولا عِلمَ لي بالمُناقَشة- وأَروني حديثًا نبويًّا شريفًا في كتاب مَوثوقٍ يُعتَمَد عليه، قد أُشيرَ فيه إلى الحديث برمز (ق) للدَّلالة على أنه «مُتَّفَقٌ عليه».. واستفسروا: أهذا حديثٌ نبويٌّ أم لا؟

قلتُ لهم: نعم.. إنه حديثٌ نبويٌّ شريف، ينبغي لكم الاعتماد والوثوقُ بالذي حَكَم باتِّفاقِ الشيخَينِ على الحديث المذكور، في مثل هذا الكتاب المَوثوق؛ ولكن كما أن في القرآن الكريم آياتٍ مُتشابهاتٍ، ففي الحديث الشريف أيضًا مُتَشابهاتٌ، لا يُدرِكُ مَعانيَها الدقيقة إلّا خواصُّ العُلَماء.

وقلت أيضًا: ربَّما يَدخُل ظاهر هذا الحديث الشريف ضمن قسمِ المُتشابهاتِ من مُشكِلات الحديث.

(*) مركز قضاء في جنوبي تركيا قريبة من «بارلا» حيث منفى الأستاذ النورسي.

فلو كُنتُ على عِلمٍ بالمُناقشة التي جَرَت حول الحديث المذكور، لَمَا كنتُ أَقتَصِرُ جوابي على ما قلتُ، بل كنتُ أُجيبُ بما يأتي:

أوَّلًا: إنَّ الشرط الأوَّلَ في مناقشة هـذه المسائل وأمثالِها هو:

أنْ تكون المُذاكَرةُ في جوٍّ من الإنصاف، وأن تُجرَى بنيّة الوصول إلى الحقِّ، وبصورة لا تَتَّسِمُ بالعِناد، وبين مَن هم أهلٌ للمُناقَشة.. دون أن تكون وسيلةً لسُوءِ الفَهمِ وسُوءِ التلَقِّي.

فضِمنَ هذه الشروط قد تكون مُناقشةُ هذه المسألة وما شابهها جائزةً.

أمّا الدليلُ على أن المُناقشة هي في سبيل الوصول إلى الحقِّ فهو ألّا يَحمِلَ المُناقِشُ شيئًا في قلبه.. ولا يتألَّمَ ولا يَنفَعِلَ إذا ما ظهر الحقُّ على لسان الطَّرَف المُخالِف له، بل عليه الرِّضَى والاطمئنان، إذ قد تَعلَّم ما كان يَجهَلُه، فلو ظَهَر الحقُّ على لسانه لما ازداد عِلمًا، وربَّما أصابه غُرورٌ.

ثانيًا: إن كان موضوعُ المُناقشة حديثًا شريفًا فينبغي معرفةُ مَراتِبِ الحديث، والإحاطةُ بدَرَجات الوَحْيِ الضِّمنيّ، وأقسامِ الكلامِ النَّبويّ.

ولا يجوزُ لأَحَدٍ مُناقشةُ مُشكِلاتِ الحديث بين العَوامِّ من الناس، ولا الدِّفاعُ عن رأيه إظهارًا للتفوُّق على الآخَرين، ولا البحثُ عن أدلّةٍ تُرجِّح رأيَه وتُنَمّي غُرورَه على الحقِّ والإنصاف.

ولكن لَمّا كانت المسألةُ قد طُرِحَت، وأصبحَت مدارَ نِقاشٍ، فستُؤدّي تأثيرَها السيِّئَ في أفهام العَوامِّ الذين يَعجِزون عن استيعاب أمثالِ هذه الأحاديثِ المُتشابِهة.

إذ لو أنكَرَها أحَدُهم فقد فَتَح لنفسِه بابًا للهَلاك والخُسران، حيث يَسُوقُه هذا الإنكارُ إلى إنكار أحاديثَ صحيحةٍ ثابتة؛ ولو قَبِل بما يُفيدُ ظاهرُ الحديث من معنًى، وتَحَدَّث به ونَشَره بين الناس، فسيكون سببًا لفَتحِ بابِ اعتراضاتِ أهلِ الضلالة على الحديث الشريف، وإطلاقِ ألسِنَتِهم بالسُّوء عليه، وقولِهم: إنه خُرافةٌ!

ولَمّا كانَتِ الأنظارُ قد لُفِتَت إلى هذا الحديث الشريف المُتَشابه دون مُبرِّر، بل بما فيه ضررٌ؛ وأن هناك أحاديثَ أخرى مُتشابِهةٌ بكَثرةٍ؛ يَلزَم بيانُ «حقيقةٍ» دَفعًا للشُّبُهات، وإزالةً للأوهام.. أقول: إن ذِكرَ هذه «الحقيقة» ضروريٌّ بغَضِّ النَّظَر عن ثُبوتِ الحديث.

سنُشيرُ إلى تلك الحقيقة إشارةً مُجمَلة، مُكتفِين بما ذكرناه من تفاصيلَ في رسائل النُّور (منها الغُصنُ الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين والغُصنُ الرابع منها، والأساس الخاصُّ بأقسام الوَحْيِ في مقدِّمة المكتوب التاسعَ عَشَر).

والحقيقة هي أنَّ الملائكة لا يَنحَصِرون في صورةٍ معيَّنة واحدةٍ كالإنسان، وإنما هم في حُكمِ الكُلِّيِّ، رَغمَ أن لهم تَشَخُّصاتِهم، فعِزرائيلُ عليه السلام هو ناظرُ الملائكة المُوَكَّلين بقَبضِ الأرواح ورئيسُهم.

سؤال: هل عِزرائيلُ عليه السلام هو الذي يَقبِضُ الأرواحَ بالذّاتِ، أم أن أعوانَه هم الذين يَقبِضُونها؟

الجواب: هناك ثلاثةُ مسالكَ بهذا الخُصوص:

المَسلَكُ الأوَّل: أنَّ عِزرائيلَ عليه السلام هو الذي يَقبِضُ رُوحَ كلِّ فردٍ، فلا يَمنَعُ فعلٌ هنا فعلًا هناك، لأنه نُورانيّ، والشيء النُّوراني يُمكِنُه أن يَحضُرَ ويتمثَّلَ بالذّات في أماكنَ غيرِ مَحدُودةٍ، بوَساطةِ مَرايا غيرِ مَحدُودةٍ؛ فتمثُّلاتُ النُّورانيّ تَملِكُ خَواصَّه، وتُعتَبَرُ عَينَه وليست غيرَه. فتمثُّلاتُ الشمس في المَرايا المُختلِفة مثلما تُظهِر ضوءَ الشمس وحرارتَها، فإن تمثُّلات الرُّوحانيِّين ـ كالملائكة ـ تُظهِر أيضًا خَواصَّها في المَرايا المُختلِفة في عالَم المِثال، فهي عينُ أولئك الروحانيِّين وليست غيرَهم؛ فالملائكة يتمثَّلون في المَرايا حَسَبَ قابليّاتِ المَرايا، فمثلًا:

عندما كان جَبرائيلُ عليه السلام يَتمثَّل أمام الرسول ﷺ في مجلسِ الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم في صورة الصَّحابي «دِحيةَ الكَلبيّ»(*) كان يَتمثَّل في اللَّحظة

(*) انظر: البخاري، المناقب ٢٥؛ فضائل القرآن ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٠٠.

نفسِها في أُلوفِ الأماكنِ في صُوَرٍ مُختلِفة، كما يَسجُد تحت العرشِ الأعظم مُطْبِقًا الآفاقَ بأجنِحَتِه الواسعةِ المَهيبةِ شرقًا وغربًا(*)، فله إذًا تمثُّلٌ في كلِّ مكان حَسَبَ قابليّة ذلك المكان، وله حُضورٌ في آنٍ واحدٍ في أُلوفِ الأماكن.

وهكذا، فحَسَبَ هذا المَسلَك: ليس مُحالًا قطُّ، ولا هو بأمرٍ فوق المُعتادِ، ولا هو أمرٌ غيرُ معقول، أن يتعرَّضَ مثالُ ملَكِ المَوتِ المُتمثِّل للإنسان عند قَبضِ رُوحه -وهو مثالٌ جزئيٌّ إنسانيّ- إلى لَطْمةِ سيِّدِنا موسى عليه السلام وهو الشَّخصيةُ العظيمةُ المَهيبةُ من أُولي العَزْمِ من الرُّسُل، ثم فَقْؤُه لِعَينِ تلك الصورة المِثاليةِ لمَلَك الموت الذي لَبِس زِيَّ تلك الصورة.

المَسلَك الثاني هو: أنَّ الملائكة العِظامَ من أمثالِ سيِّدنا جَبرائيلَ ومِيكائيلَ وعِزرائيلَ عليهم السلام، كلٌّ منهم بمَثابةِ ناظرٍ عامٍّ ورَئيسٍ، لهم أَعوانٌ من نَوعِهم وممَّن يُشبِهونهم، ولكن بطرازٍ أصغرَ؛ فهؤلاء المُعاوِنون

(*) البخاري، بدء الوحي ٣، بدء الخلق ٧، تفسير سورة المدثر ٣-٥؛ مسلم، الإيمان ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨.

الصِّغارُ مُختلِفون حسَبَ اختلافِ المَخلوقات المُوكَّلين بهم، فالذين يَقبِضون أرواحَ الصالحين(*) يَختلِفون عن الذين يَقبِضون أرواحَ الطّالِحين، فهم طَوائفُ مُختلِفةٌ من الملائكة بمِثل ما تُشيرُ إليه الآياتُ الكريمة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ (النازعات: ١-٢).

فحسَبَ هذا المَسلَك: فإن سيِّدنا موسى عليه السلام، لم يَلطُم سيِّدَنا عِزرائيلَ عليه السلام، بل لَطَم الجسدَ المِثاليَّ لأحَدِ أعوانِه، وذلك بعُنفُوانِ النُّبوّة الجليلة وبَسطةِ جِسمِه وجَلادةِ خَلقِه وحُظوَتِه عند ربِّه القدير.. وهكذا يُصبح الأمرُ معقولًا جِدًّا(**).

(*) عندما كان أحد الأولياء العظام في منطقتنا وهو الملقَّب بـ«سَيْدا» يُعاني سَكَرات الموت وحضَرَه ملَك الموت الموكَّل لقبضِ أرواح الأولياء الصالحين، استنجد بالله واستغاثَه وصرخ قائلاً: «لِيَقبِض رُوحي من هو الموكَّل لقبض أرواح طُلّاب العلوم، فأنا أحبُّهم حبًّا شديدًا». وقد شهد على الحادثة من كان حاضرًا ساعة وفاته. (المؤلف).

(**) كان في مدينتنا رجلٌ شجاع، ولما حضَرَه الموت قال لمَلَك الموت: «أتقبِضُ روحي وأنا طريحُ الفِراش؟»، فنهض بخِفّة من فراشه وامتطَى جوادَه وسلَّ سيفَه، وكأنه في مَيدانِ جهاد ومبارزة معه، ثم سلَّم روحه وهو على صهوة جوادِه. وتوفي وفاة الغَيارَى. (المؤلف).

المَسلَك الثالث: لقد بيَّنّا في «الأساس الرابع من الكلمة التاسعة والعشرين»، وحسَبَ دَلالاتِ أحاديثَ نبويةٍ شريفة: بأن هناك من الملائكة مَن يَملِكون أربعين ألفَ رأسٍ(*)، وفي كلِّ رأسٍ أربعون ألفَ لِسانٍ -أي لهم ثمانون ألفَ عينٍ أيضًا- وكلُّ لِسانٍ يُسبِّح بأربعين ألفَ تسبيحةٍ؛ فما دام الملائكةُ المُوكَّلون مُوكَّلين حسَبَ أنواع عالَمِ الشهادة، وهم يُمثِّلون تَسبيحاتِ تلك الأنواع في عالَمِ الأرواح، فلا بُدَّ أن يكون لهم تلك الصُّورةُ والهَيئة، لأن الأرض ـ مثلًا ـ وهي مخلوقةٌ واحدة، تُسبِّحُ لله، وهي تَملِك أربعين ألفَ نوعٍ من الأنواع، بل مئاتِ الأُلوفِ منها، والتي كلٌّ منها بحُكمِ رُؤوسٍ مُسبِّحةٍ لها، ولكلِّ نوعٍ من الأنواع أُلوفٌ من الأفرادِ التي هي بمَثابةِ الألسِنةِ.. وهكذا.

فالمَلَك المُوكَّل على الكرة الأرضية ينبغي أن يكون له أربعون ألفَ رأسٍ، بل مِئاتُ الأُلوفِ من الرُّؤوس،

(*) انظر: الطبري، جامع البيان ١٥/ ١٥٦؛ أبو الشيخ، العظمة ٢/ ٥٤٧، ٧٤٠، ٧٤٢، ٧٤٧، ٣/ ٨٦٨؛ ابن كثير، تفسير القرآن ٣/ ٦٢.

ولا بُدَّ أن يكون لكلِّ رأسٍ مئاتُ الأُلوفِ من الألسِنة.. وهكذا.

فبناءً على هذا المَسلَك: فإن عِزرائيلَ عليه السلام له وجهٌ مُتوجِّهٌ إلى كلِّ فردٍ، وعينٌ ناظرةٌ إلى كلِّ فردٍ، لذا فلَطْمُ سيِّدِنا موسى عليه السلام ليس هو لَطْمًا على الماهِيَةِ الشخصية لسيِّدِنا عِزرائيلَ -حاشاه- ولا على شَكلِه الحقيقي، وليس فيه إهانةٌ، ولا ردٌّ له، بل تَصَرُّفه هذا نابعٌ من كونِه راغبًا في زيادة دَوامِ مُهِمّة الرسالة واستمرارِ بقائها، ولأجل هذا لَطَمَ -وله أن يَلطُمَ- تلك العين التي تُراقِبُ أجَلَه، والتي تُريدُ أن تُنهيَ وَظيفتَه على الأرض. والله أعلم بالصواب، ولا يَعلَمُ الغَيبَ إلّا هو. ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (الملك: ٢٦).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى

ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ٧).

* * *

المقدِّمة الحاديةَ عشرةَ من «المحاكمات»

قضايا عدّة في قضية واحدة

قد يتضمَّن الكلامُ الواحد أحكامًا عِدّة، فربَّما يَحوِي الصَّدَفُ الواحدُ كثيرًا من الدُّرَرِ.

والمقرَّر لدى أربابِ العُقول:

أن القضيّةَ الواحدة تتضمَّن قضايا عِدّة؛ كلٌّ يُثمِر ثَمَرًا مُبايِنًا للآخَر، كما نَبَعَ ونَشَأ من أَصلٍ مُختلِف.. فالعاجز عن التَّمييز يُجانِبُ الحقَّ ويَغترِبُ عنه.

مثال ذلك: وَرَد في الحديث الشريف: «**بُعِثتُ أنا والسّاعةُ كهاتَينِ**»(*)، أي: لا نبيَّ بعدي إلى قيامِ السّاعةِ.. فأيًّا كان المَقصودُ من الحديث فهو حقٌّ.

(*) البخاري، تفسير سورة النازعات ١، الطلاق ٢٥، الرقاق ٣٩؛ مسلم، الفتن ١٣٢؛ الترمذي، الفتن ٣٩.

فهذا الحديث الشريف يتضمَّن ثلاثَ قضايا:

أُوْلاها: أن هذا الكلامَ هو كلامُ النبيّ ﷺ..

هذه القضية هي نتيجةُ التواتُرِ إن كان (أي: إن كان الحديثُ مُتواتِرًا).

ثانيتُها: أن المعنى المُرادَ من هذا الكلام حقٌّ وصِدقٌ..

هذه القضيةُ هي نتيجةٌ للبرهان المُستَنِد إلى مُعجزاتِه ﷺ، فلا يَصدُر عنه غيرُ الصِّدق؛ فينبغي الاتِّفاقُ في هاتَينِ القضيتَينِ، لأن مَن يُنكِر الأُولى فهو كاذبٌ مُكابرٌ، أمّا الذي يُنكِر الثانيةَ فهو ضالٌّ قد هَوَى في الظُّلُمات.

القضية الثالثة: أن المُرادَ من هذا الكلام هو هذا (أي: الذي أسوقه).. فها هو الدُّرُّ الموجود في هذا الصَّدَف.

هذه القضية هي نتيجةُ الاجتهاد، لا التشَهِّي؛ إذ من المعلوم أن المُجتَهِد ليس مكلَّفًا بتقليد غيره من المُجتهِدين.

هذه القضيةُ الثالثة هي مَنبَع الاختلافاتِ، وأصدقُ شاهدٍ على ذلك هو ما نراه من الأقوال المُتضارِبة (في مسألة واحدة).

فالذي يُنكِر هذه القضية لا يكون مُكابرًا ولا ضالًّا، ولا يَنساقُ إلى الكفر، إن كان إنكارُه نابِعًا من الاجتهاد؛ إذ العامُّ لا يَنتَفي بانتفاء الخاصّ، وكم من قطعيِّ المتنِ ظنِّيِّ الدَّلالة.. فلا بُدَّ من الدُّخول إلى البيوت من أبوابها، فإنّ لكلٍّ بابًا، ولكلِّ قُفلٍ مِفتاحًا.

خاتمة:

هذه القضايا الثلاثُ تَجري في الآية جرَيانَها في الحديث الشريف، حيث إنها قضايا عامّةٌ. إلّا أن الأُولَى منها فيها فَرقٌ دقيق.

وهكذا يتضمَّن الكلام أحكامًا كثيرة، إلّا أنها أحكامٌ خاصّة، كلٌّ منها يَختَلِف عن الآخرِ في الأصل مثلما يُثمِرُ ثَمَرةً مُبايِنةً للآخَر.

تنبيه: قد يَجِدُ من يُريد أن يُغالِط في مثل هذه المَقامات ذرائعَ تافهةً وحُججًا واهية ناجِمةً من حُبِّ النَّفْس:

كالتزامِ الطَّرَفِ المُخالِف..

والتعصُّبِ الذَّميم..

وحبِّ الظُّهور..

والشعورِ بالانحياز إلى جهة..

وتسويغ الأوهام والخَيالات بإسنادها إلى أصلٍ..

ورؤيةِ الأمورِ الواهية قويّةً، لُموافَقَتها رَغَباتِه الشخصية.

وإظهارِ كمالِه بتَنقيصِ الآخرين والتَّهوينِ من شأنهم..

وإبرازِ كونِه صادقًا بتكذيبِ الآخَرين..

وبيانِ استقامتِه بإضلالهم..

وغيرِها من الأمور السّافِلةِ الُمنحطّة!

وإلى الله الُمشتكَى.

* * *

«اللمعة الرابعة عشرة»

المقام الأول

بين الحقيقة والتشبيه

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخي العزيزُ الصادقُ الوفيُّ السيِّد رأفت..

إن ما سألتُموه من سؤالٍ حول «الثَّورِ والحُوت» قد ورد جوابُه في بعض الرسائل. وقد بُيِّنَت في «الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين» اثنتا عَشْرةَ قاعدةً مُهِمّةً ضِمن اثني عشَرَ أصلًا حولَ هذا النوع من

الأسئلة، تلك القواعدُ تُمثِّل أُسُسًا مُهِمّةً لدَفعِ الشُّبُهات والأوهامِ الواردةِ على الأحاديث الشريفة، فكلُّ قاعدة منها مَحَكٌّ جيِّدٌ لبيان التأويلات المختلفةِ حول الأحاديث النَّبويةِ.

أخي.. إنَّني لا أَنشَغِل إلّا بالسَّوانح القَلبيّة، فهناك حالاتٌ طارئة في الوقت الحاضِر تَحُولُ ـ مع الأسف ـ دون اشتغالي بالمَسائلِ العِلميّة؛ لذلك لا أستطيعُ الإجابةَ عن سؤالكم بجوابٍ شافٍ؛ وإنْ وَفَّق اللهُ وفَتَح علينا سوانحَ قلبيةً أُضطَرُّ إلى الانشغال بها. وربما يُجابُ عن أسئلةٍ لتُوافُقِها مع السَّوانح، فلا تتضايقوا، إذ لا أستطيع الإجابةَ عن كلٍّ من أسئلتكم إجابةً وافيةً.. فلأُجِبْ هذه المرّةَ عن سؤالكم:

تَذكُرون يا أخي في سؤالكم: أنَّ عُلَماء الدِّين يقولون: الأرضُ تَقُوم على الحُوتِ والثَّور، عِلمًا أن الجُغرافية تَراها كَوكبًا مُعلَّقًا يَدُور في السماء كأيِّ كَوكبٍ آخَر، فلا ثَورَ ولا حُوتَ.

الجواب: هناك روايةٌ صحيحةٌ تُسنَد إلى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، تقولُ: سُئل الرسولُ ﷺ: على أيِّ شيء تَقومُ الأرضُ؟ أجاب: على الثَّور والحُوتِ. وفي روايةٍ أُخرَى، قال مرّةً: على الثَّور. ومرّةً: على الحُوت(*). ولكنَّ عددًا من المُحدِّثين طبَّقوا هذه الروايةَ على حكايات خُرافيّةٍ وقديمة وَرَدَت من الإسرائيليّات، ولا سيَّما مِن عُلَماء بني إسرائيل الذين أسلَمُوا، فهؤلاء غيَّروا معنى الحديث وحوَّلوه إلى معنًى عجيبٍ غريبٍ جدًّا، حيث طبَّقوا الحديثَ على ما شاهدوه من حكاياتٍ حولَ الثَّور والحُوت في الكُتُب السّابقة.

ونحن هنا نُشير باختصارٍ شديد إلى «ثلاثة أُسُس» و«ثلاثة وُجُوه» لدى الإجابة عن سؤالكم:

(*) أخرجه الحاكم (٤/ ٦٣٦، رقم ٨٧٥٦) وقال: الحديث صحيح ولم يخرِّجاه. وتعقَّبه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٥٨) فقال: في متنه نكارة والله أعلم. وانظر: أبو الشيخ، العظمة ٣/ ١٠٣٢، ٤/ ١٣٨٣، ١٤٠٠، ١٤٠٣. ابن رجب، التخويف من النار ص ١٠١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ٨/ ١٣١؛ ابن الجوزي، المنتظم ١/ ١٧٢.

الأساس الأول: لقد حَمَل قِسمٌ من عُلَماء بني إسرائيل بعد إسلامهم معلوماتِهم السّابقةَ معهم إلى الإسلام، فأصبحَت مِلكَ الإسلام، أي: ضِمنَ المَعارِف الإسلامية، عِلمًا أن معلوماتِهم السّابقةَ تَحوي أخطاءً، فتلك الأخطاءُ بلا شكٍّ تعود إليهم لا إلى الإسلام.

الأساس الثاني: إن التَّشبيهاتِ والتَّمثيلات كلّما انتقلَت من الخَواصِّ إلى العَوامِّ، أي: كلَّما سَرَت من يَدِ العِلمِ إلى يَدِ الجَهلِ عُدّت حقائقَ ملموسةً بمُرورِ الزَّمَن، أي: كأنَّها حَقائقُ واقعةٌ وليسَت تَشبيهاتٍ.

فمثلًا: حينما كنتُ صَبيًّا خُسِف القمرُ، فسألتُ والدتي: ما هذا الذي حَدَث للقمر؟ قالت: ابتَلَعَتْه الحَيّةُ! قلت: ولكنَّه يتَبيَّن! قالت: إن الحيَّاتِ في السَّماء شفّافةٌ كالزُّجاج تَشُفُّ عمّا في بطنِها.. كنتُ أتذكَّرُ هذه الحادثة كثيرًا وأُسائلُ نفسي: كيف تَدُور خُرافةٌ بعيدة عن الحقيقة إلى هذه الدَّرجةِ على لسانِ والدتي الحَصيفةِ الجادّةِ في كلامِها؟

ولكن حينما طالَعتُ عِلمَ الفَلَك رأيتُ أن الذين يقولون كما تقولُ والدتي، قد تلَقَّوُا التَّشبيهَ كحقيقةٍ واقعية؛ لأن الفَلَكيِّين شبَّهوا القَوسَينِ الناشئَينِ من تداخُلِ دائرة الشَّمس، وهي مَنطِقةُ البُروج ومَدارُ دَرَجاتِها، مع دائرة القَمَر، وهي مَيلُ القمر ومَدارُ مَنازِلِه، شبَّهوهما تشبيهًا لطيفًا بحَيَّتَينِ ضخمتَينِ، وسمَّوْهما تِنِّينَينِ، وأطلقوا على إحدى نُقطتَي تقاطُع تلك الدائرتَينِ «الرأسَ» والأُخرَى «الذَّنَبَ»؛ فحينما يَبلُغ القمرُ الرأسَ والشَّمسُ الذَّنَبَ تَحصُل حَيلولةُ الأرض -كما يَصطَلِحُ عليها الفلكيُّون- أي تَقَعُ الأرضُ بينهما تمامًا، وعندها يُخسَفُ القمرُ، أي: كأن القمرَ يَدخُل في فم التِّنِّينِ، حسَبَ التَّشبيهِ السّابق.

وهكذا عندما سَرَى هذا التشبيهُ العِلميُّ الرّاقي بمُرورِ الزَّمَن إلى كلام العَوامِّ غدا التشبيهُ تِنِّينًا عظيمًا مُجسَّمًا يَبتَلِع القمرَ!

وكذلك المَلَكانِ العَظيمانِ المُسمَّيانِ بالثَّورِ والحُوتِ، قد أُطلِق عليهما هذان الاِسمانِ في تشبيهٍ لطيفٍ سامٍ، وفي

إشارةٍ ذاتِ مَغزًى؛ ولكن لَمّا انتقلَ التشبيهُ اللَّطيفُ من لسانِ النُّبوّةِ البليغِ السّامي إلى لسانِ العَوامِّ، بمُرور الزَّمَن، انقلَبَ التشبيهُ إلى حقيقةٍ واقعةٍ، فاتَّخَذ المَلَكانِ صُورةَ ثَورٍ ضخمٍ وحُوتٍ هائلٍ.

الأساس الثالث: كما أن للقرآن الكريم مُتَشابهاتٍ، يُعلِّمُ المسائلَ الدَّقيقة العميقةَ للعَوامِّ بالتشبيهِ والتَّمثيل، كذلك للحديث الشريف مُتشابِهاتٌ يُعبِّرُ عن الحَقائقِ الواسعة بتَشبيهاتٍ مأنوسةٍ لدى العَوامّ. مثالُ ذلك ما ذكرناه في رسائلَ أُخرَى:

أنه عندما سُمِع دَوِيٌّ في مَجلِس الرسول ﷺ قال: «**هذا حَجَرٌ يَتدَحرجُ منذ سبعين سنةً في جَهنَّم، فالآن حينَ وَصَل إلى قَعْرِها**»(*)، وبعد مُضيِّ دقائقَ جاء أحدُهم وقال: «إنَّ المُنافِقَ الفُلانيَّ المعلومَ الذي يَبلُغُ سبعينَ سنةً مِن العُمُرِ قد مات»، فأَعلَن عن الحقيقة الواقعة بالتشبيهِ البَليغِ الذي ذَكَرَه الرسولُ ﷺ.

(*) انظر: مسلم، الجنة ١٢؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٣/ ٣١٥، ٣٤١، ٣٤٦.

أمّا عن سؤالك يا أخي فسنَذكُر له ثلاثةَ وُجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّ الله سُبحانَه قد عيَّن أربعةً من الملائكةِ العِظامِ في العَرشِ والسَّماواتِ للإشراف على سَلطَنةِ رُبُوبيَّتِه، اسمُ واحدٍ منهم «النَّسرُ»، واسمُ آخَرَ «الثَّورُ»(*).

أمّا الأرض التي هي شَقيقةٌ صغيرةٌ للسَّماوات ورَفيقةٌ أمينةٌ للسَّيّارات، فقد عُيِّن لها مَلكانِ مُشرِفانِ يَحمِلانِها، يُطلَق على أحدهما: «الثَّورُ»، وعلى الآخَرِ «الحُوتُ»؛ والحِكمةُ في تَسمِيَتِهما بهذَينِ الإسمَينِ هي أن الأرض قسمان: البَرُّ والبحرُ، أي: اليابسةُ والماءُ، فالذي يَعْمُرُ البحرَ أو الماءَ هو الحُوتُ أو السَّمَك، أمّا الذي يَعْمُرُ البَرَّ والترابَ فهو الثَّور، حيث إن مَدارَ حياةِ الإنسان على الزِّراعة المَحمولة على كاهِلِ الثَّور.

فالمَلكان المُوكَّلانِ بالأرض إذًا هما قائدان لها ومُشرِفان عليها، لذا لهما تَعَلُّقٌ وارتباطٌ ومُناسَبةٌ - من جهةٍ - مع طائفةِ

(*) انظر: البيهقي، الأسماء والصفات ص ٤٠٣؛ السيوطي، الدر المنثور ١/ ٣٢٩، ٦/ ٢٦١.

الحُوتِ ونَوعِ الثَّور. ولَرُبَّما ـ والعِلمُ عند الله ـ يَتَمثَّلانِ في عالَمِ المَلَكوتِ وفي عالَمِ المِثالِ على صورة الحُوت والثَّور(*). فإشارةً إلى هذه المُناسَبةِ والعلاقة، وإيماءً إلى ذَينِك النَّوعَينِ مِن مَخلوقاتِ الأرض، قال الذي أُوتِيَ جَوامِعَ الكَلِم ﷺ: «الأرضُ على الثَّورِ والحُوتِ»، فأفاد بجُملةٍ واحدةٍ وَجيزةٍ بليغةٍ عن حَقيقةٍ عظيمة عَميقةٍ قد لا يُعَبَّرُ عنها في صحيفةٍ كاملة.

الوجه الثاني: لو قيل: بِمَ تقومُ هذه الدَّولةُ؟ فالجواب: على السَّيف والقلم: أي تَستَنِدُ إلى قُوّةِ سيفِ الجيشِ وشجاعتِه وإقدامِه، وعلى دِرايةِ قَلَمِ المُوظَّفين وعدالَتِهم.

(*) نعم: إن الكرة الأرضية إنما هي كسفينة تَمخَر عُبابَ بحر الفضاء، فالذي يُجري هذه السفينةَ الضخمة التي لا شعورَ لها بانتظامٍ دقيق ويَسُوقها لحِكمةٍ معيَّنة بالأمر الإلهي، أي: إن قائد تلك السفينة ورُبّانَها إنما هو المَلَك الذي يُطلَق عليه اسمُ «الحوت». وهي أيضًا –أي: الأرض– كمَزرعةٍ للآخرة كما هو ثابتٌ في الحديث الشريف، فالذي يُشرِفُ على تلك المَزرعة من الملائكة – بالإذنِ الإلهيِّ هو المَلَك الذي يُطلَق عليه اسمُ «الثَّور». ولا يَخفَى ما لهذا الإطلاق الجميل من انسجامٍ لطيف. (المؤلف).

وحيث إن الأرض مَسكَنُ الأحياءِ، وسيِّدُ الأحياء الإنسانُ، والقِسمُ الأعظم من الناس يَقطُنون السَّواحلَ ومعيشَتُهم على السَّمَك، والباقون تَدُور معيشَتُهم على الزراعة التي هي على عاتِقِ الثَّور ومِحوَرُ تِجارتِهم على السَّمَك؛ فمِثلما يُمكن القولُ: إن الدَّولة تَقُوم على السَّيف والقلَم، يُمكِن كذلك القولُ: إنَّ الأرض تَقُوم على الثَّور والحُوت؛ لأنه متى أَحجَم الثورُ عن العَمَل، ولم يُلْقِ السَّمَكُ مَلايينَ البُيوض دَفعةً واحدةً، فلا عيشَ للإنسان، وتَنهارُ الحياة، ويُدمِّرُ الخالقُ الحكيمُ سُبحانَه الأرضَ.

وهكذا أجاب الرسولُ الكريم ﷺ عن السُّؤال بحِكمةٍ سامِيةٍ وببلاغة مُعجِزة وبكلمتَين اثنتَين مُبيِّنًا حقيقةً واسعة تتعلَّق بمَدَى ارتباطِ حياة الإنسان بالحَيَوان، فقال ﷺ: «**الأرض على الثَّور والحوت**».

الوجه الثالث: إنَّ الشَّمس في نَظَرِ عُلَماء الفَلَك القديم تَدُور والأرض ثابتةٌ، وعبَّروا عن كلِّ ثلاثين درجةً من

دَرَجاتِ الشَّمس بـ«البُرجِ»، فلو مُدَّت خُطوطٌ افتراضيةٌ بين نُجوم تلك البُروج لَحَصَل ما يُشبِهُ صورةَ الأَسَد أحيانًا، أو صُورةَ المِيزان، أو صُورةَ الثَّور، أو صُورةَ الحُوت.. لذا بيَّنوا تلك البُروجَ بتلك الأسماءِ.

أمّا عِلمُ الفَلَك الحاضر فيَرى أنَّ الشَّمس لا تَدُور حولَ الأرض، بل الأرضُ تَدُور حولَها، أي: يُعطِّل العملَ في تلك البُروجِ، فلا بُدَّ أنَّ لتلك البروج العاطِلةِ عن العملِ والدوائرِ الهائلةِ دَوائرَ بمِقياسٍ أصغرَ في مَدارِ الأرض السَّنَويّ، أي: أصبَحَت البُروجُ السَّماوية تتمثَّل في مَدارِ الأرض السَّنَويّ، وعندئذٍ تَدخُل الأرضُ كلَّ شهرٍ في ظلِّ أحَدِ البُروجِ، وتكون ضِمنَ انعكاسِه، فكأنَّ مَدارَ الأرض السَّنَويَّ مِرآةٌ تتمثَّل فيها صورةُ البُروج السَّماوية.

وهكذا بناءً على هذا الوجه -من المسألة- فقد قال الرسولُ الأعظم ﷺ كما ذكرنا سابقًا: «على الثَّور» مرّةً و«على الحُوت» مرّةً أُخرَى.

نعم، إنه حَرِيٌّ بلسانِ ذلك النبيِّ الكريم المُعجِز أنْ يقولَ مرّةً: «على الثور» مُشِيرًا به إلى حقيقةٍ عميقةٍ لا تُدرَكُ إلّا بعد قرونٍ عديدة، حيث إن الأرض في تلك الحِقبةِ - أي: حِقبة السؤال- كانت في الصُّورة المِثاليّة لبُرجِ الثَّور، بينما عندما سُئل ﷺ السؤالَ نفسَه بعد شهرٍ قال: «على الحُوت» لأن الأرض كانَت في ظِلِّ بُرجِ الحُوت.

وهكذا أشار ﷺ بقوله: «على الثُّور والحُوت» إلى هذه الحقيقة العظيمة التي ستَظهَر في المُستقبل وتتوضَّحُ.. وأشار به إلى حركةِ الأرض وسِياحَتِها.. ورمزَ به إلى أن البُروجَ السَّماويةَ الحقيقية والعامِلةَ هي التي في مَدارِ الأرض السَّنَويّ، والأرضُ هي القائمة بالوظيفة والسِّياحة في تلك البُروجِ، بينما التي بالنِّسبة إلى الشَّمس عاطِلةٌ دون أجرامٍ سَيّارةٍ فيها. والله أعلم بالصَّواب.

وأمّا ما جاء من حكاياتٍ خارجةٍ عن طَورِ العقل في بعض الكُتُب الإسلامية حولَ الثَّورِ والحُوت، فإمّا أنَّها

من الإسرائيليات، أو هي تَشبيهاتٌ وتَمثيلاتٌ، أو أنَّها تأويلاتٌ بعضِ الرُّواة، حَسِبَها الذين لا يَتحرَّون الدِّقَّةَ من الحَديثِ نفسِه، وأسَندُوها إلى كلام الرسول ﷺ.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

* * *

المقدمة الخامسة

من «المحاكمات»

إذا وقعَ المَجازُ من يَدِ العِلم إلى يَدِ الجَهلِ يَنقَلِبُ إلى حقيقةٍ، ويَفتَح البابَ للخُرافاتِ(*).

فالمَجازاتُ والتشبيهاتُ إذا ما اقتطفَتْهما يَسارُ الجَهلِ المُظلِم من يمينِ العِلم المُنوَّر، أو استمرَّتا وطال عُمُرُهما، انقلَبَتا إلى «حقيقة» مُستفرَغةٍ من الطَّراوة والنَّداوة، فتَصيرُ سَرابًا خادعًا بعدما كانَت شرابًا زُلالًا، وتُصبحُ عجوزًا شَمْطاءَ بعدما كانَت فاتِنةً حَسناءَ.

نعم، إن شُعلةَ الحقيقة إنما تَتلمَّع من المَجازِ بشَفافيَّتِه، ولكن بتَحوُّله إلى حقيقةٍ يُصبح كثيفًا قاتِمًا يَحجُبُ الحَقيقةَ الأصلية. فهذا التَّحوُّل قانونٌ فِطريّ، فإن أردتَ شاهدًا

(*) فصَّلتُ هذه المسألة في اللَّمعة الرابعةَ عشرةَ.

عليه فراجِع أسرارَ تَجَدُّدِ اللُّغاتِ وتَغيُّراتِها، والاشتراكَ والتَّرادُفَ في الأمور، أَنصِتْ إليها جَيِّدًا تَسمَعْ حَتمًا أن كثيرًا من الكلماتِ أو الحِكاياتِ أو الخَيالاتِ أو المَعاني التي كان السَّلَفُ يتذوَّقونها، لم تُوافِقِ الرَّغَباتِ الشّابّةَ لدى الخَلَفِ، لأنها غَدَت عجوزًا لا زِينةَ لها، لذا أصبحَت سببًا لدَفعِهم إلى مَيلِ التجدُّدِ والرغبةِ في الإيجاد، والجُرأةِ على التَّغييرِ.

هذه القاعدة جاريةٌ في اللُّغات مِثلَما هي جاريةٌ في الخَيالاتِ والمَعاني والحِكايات، ولهذا لا يَنبَغي الحُكمُ على أيِّ شيء بظاهرِه؛ إذ من شأن المُحقِّق:

سَبرُ غَورِ الموضوع.. والتجرُّدُ من المُؤثِّرات الزَّمانية.. والغَوصُ في أعماقِ الماضي.. ووَزنُ الأمور بمَوازينِ المَنطِق.. ووِجدانُ مَنبَعِ كلِّ شيء ومَصدرِه.

وممّا أَطلَعني على هذه الحقيقة ودَلَّني عليها هو حدوثُ خُسوفِ القمرِ زَمَنَ صِباي، إذ سألتُ والدتي عنه، فأجابَت: لقد ابتلَع الثُّعبانُ القمرَ. فقلت: فَلِمَ يُشاهَد القمرُ؟ قالت: إن ثَعابين السَّماء شِبهُ شَفّافةٍ.

فانظُر كيف تَحَوَّل التشبيهُ إلى حقيقة! فحَجَبَت حقيقةَ الحـالِ، إذ شَبَّه أهلُ الفَلَك تَقاطُعَ مائلِ القمرِ بمَنطِقة البُروجِ في الرَّأس والذَّنَب بثُعبانَينِ أو تِنِّينَينِ؛ حيث إنَّ القمرَ أو الشمسَ إذا أتى أحدُهما إلى الرأس والآخَرُ إلى الذَّنَب وتَوسَّطَتْهما الأرضُ، يُخسَفُ القمرُ.

يا من لا يَسأَمُ من كلامي المُختلِط هذا.. أَنعِمِ النَّظَر أيضًا في هذه المقدِّمة، وانظُر إليها بدِقّةٍ مُتناهِية، فكثيرٌ جدًّا من الخُرافاتِ والخِلافاتِ، إنَّما تَنشَأ من هذا الأصل.. فينبغي الاسترشادُ بالمَنطِق والبلاغة.

خاتمة:

يجبُ أن يكون للمعنى الحقيقيِّ خَتْمٌ خاصٌّ وعلامة واضحةٌ متميِّزة، والمُشَخِّص لتلك العلامة هو الحُسْنُ المُجرَّد الناشئُ من مُوازَنة مقاصِدِ الشريعة.

أمّا جـوازُ المَجاز فيجب أن يكون على وَفـقِ شروط البلاغة وقواعِدِها، وإلّا فرُؤية المَجاز حقيقةً والحقيقةِ مجازًا، أو إراءَتُها هكذا، إمدادٌ لسَيطرةِ الجَهلِ ليس إلّا .

إن مَيلَ التفريط من شأنِه حَملُ كلِّ شيء على الظاهِر.. حتى لَيَنتهي الأمرُ تدريجيًّا إلى نُشوءِ مَذهبِ الظّاهرية مع الأسف؛ وإن حُبَّ الإفراط من شأنِه النَّظَرُ إلى كلِّ شيء بنَظَر المَجاز، حتى لَيَنتهي الأمرُ تدريجيًّا إلى نُشوءِ مَذهبِ الباطنيةِ الباطِلِ. فكما أن الأوَّلَ مُضِرٌّ فالثاني أكثرُ ضررًا منه بدَرَجات.

والذي يُبيِّنُ الحَدَّ الأوسط ويَحُدُّ من الإفراط والتفريط إنما هو فلسفةُ الشريعة مع البلاغة، والحكمةِ مع المَنطِق.

نعم، أقولُ: الحِكمةُ (الفلسفة) لأنها خَيرٌ كثيرٌ مع تضمُّنِها الشَّرَّ، إلّا أنه شَرٌّ جُزئيٌّ. ومن الأصول المُسلَّمة أنه يَلزَمُ اختيارُ أَهوَنِ الشَّرَّينِ، إذ تركُ ما فيه خيرٌ كثير لأجلِ شَرٍّ جُزئيٍّ فيه يعني القيامَ بشَرٍّ كثير.

نعم، إن الحِكمة القديمة (الفلسفة القديمة) خيرُها قليلٌ، خُرافاتُها كثيرة، حتى نَهَى السَّلَفُ -إلى حدٍّ مّا- عنها، حيث الأذهانُ كانت غيرَ مُستعِدّة، والأفكارُ مقيَّدةً بالتقليد، والجهلُ مُسْتَولٍ على العَوامّ. بينما الفلسفة الحاضرة

فخَيرُها كثيرٌ -من جهة المادّة- بالنسبة إلى القديمة، وكَذِبُها وباطِلُها قليلٌ؛ والأفكارُ حُرّةٌ في الوقت الحاضر، والمَعرفةُ مُسيطِرةٌ على الجميع.. وفي الحقيقة: لا بُدَّ أن يكون لكلِّ زمانٍ حُكْمُه.

* * *

من الشعاع الخامس

بين التفصيل والإجمال

* **النقطة الثانية:**

إن الأمـورَ الغَيبيةَ التي عُلِّمَها الرسولُ الكريم ﷺ ليست سَواءً، فقِسمٌ منها عُلِّمَها تفصيلًا، فلا تَصَرُّفَ ولا تَدَخُّلَ له قطُّ في هذا القِسم، كالقرآن الكريم ومُحكَماتِ الأحاديث القُدسية؛ والقِسمُ الآخَر قد عُلِّمَها إجمالًا، وتُرِكَ أمرُ تصويرها وتفصيلها إلى اجتهاده ﷺ، كالأحاديث التي تَدُور حولَ الحَوادثِ الكونيةِ والأحداث المُستقبَلية التي هي ليست من أُسُـسِ الإيـمان. فالرسول ﷺ هو الذي يُصوِّر ويُفصِّلُ ببلاغته -بأساليبِ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ- تلك الأمورَ بما يُوافِقُ حِكمةَ التكليفِ.

فمثلًا: سُمِع دَوِيٌّ في مجلس الرسول ﷺ فقال: إن هذا صَوتُ حَجَرٍ ظلَّ يتَدحرَجُ إلى جهنَّم منذُ سبعين سنةً، الآن وَصَل إلى قَعرِها(*). وبعد مُرورِ بضعِ دقائقَ على هذا الحَدَث المُثيرِ أتى أحدُهم وأخبَرَ رسولَ الله ﷺ أن المُنافِق الفُلانيَّ وهو يُناهِزُ السبعين من عُمُرِه قد مات وولَّى إلى جهنَّم وبئس المَصيرُ.. فأظهَر تأويلَ البلاغة الفائقةِ لكلام الرسول ﷺ.

تنبيهٌ: لا يُعيرُ نَظَرُ النُّبوّةِ اهتمامًا لحَوادِثِ المُستقبَل الجُزئيةِ التي لا تَدخُل ضِمنَ الحَقائقِ الإيمانية.

* النقطة الثالثة:

وهي عبارة عن نُكتتَين:

أُولاهما: أن قِسمًا من الأحاديث المَروِيّة على صورةِ تَشبيهاتٍ وتَمثيلاتٍ تَلَقّاه العَوامُّ بمُرورِ الزَّمَن حَقائقَ مادِّيةً، لذا لا يَبدو في نَظَرِهم مُطابِقًا لواقع الحال، على الرَّغم من أنه حقيقةٌ ثابتة.

(*) انظر: مسلم، الجنة ٣١، المنافقون ١٥؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٧١، ٣٩/ ٣٤١- ٣٤٦؛ ابن حبان، الصحيح ١٦/ ٥١٠.

مثلًا: إن المَلَكينِ اللَّذَينِ هما من حَمَلةِ الأرض -كما للعرش حَمَلَتُه- واللَّذينِ على صورةِ «الثَّورِ» و«الحُوت»، وسُمِّيا باسمِهما(*) قد تَصوَّرَهما العَوامُّ ثَورًا ضَخمًا حَقيقيًّا وحُوتًا هائلًا حَقيقيًّا!

ثانيتُهما: أن قِسمًا من الأحاديث قد وَرَد من حيث كثرةُ المسلمين في تلك المَنطِقة، أو من حيث وجودُ الحُكومة الإسلامية هناك، أو من حيث مَركَزُ الخلافة الإسلامية، لكنَّه ظُنَّ أنه شاملٌ لجميع المسلمين، ولجميع أنحاء العالَم، ورَغمَ أنه خاصٌّ من جهةٍ، إلّا أنه تُلُقِّي كُلِّيًّا وعامًّا.

فمثلًا: ورد في الحديث الشريف: «**لا تَقُومُ السّاعة حتَّى لا يُقالَ في الأرض: اللهُ.. اللهُ**»(**) أي: ستُغلَق أبوابُ أماكِنِ الذِّكر، وسيُنادَى بالأذان وبإقامة الصَّلاة بالتُّركية.

(*) انظر: الطبري، جامع البيان ١/ ١٥٣، ١٩٤، ٢١/ ٧٢؛ الحاكم، المستدرك ٤/ ٦٣٦؛ ابن عبد البر، التمهيد ٤/ ٩؛ الهيثمي مجمع الزوائد ٨/ ١٣١ (نقلًا عن البزار).

(**) انظر: مسلم، الإيمان ٢٣٤؛ الترمذي، الفتن ٣٥؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ١٠٧، ٢٠١، ٢٦٨.

*** النقطة الرابعة:**

مثلَما حُجِبَت أمورٌ غيبيّةٌ كالأَجَل والموت لحِكَم ومصالحَ شَتَّى، فإن القيامة -التي هي سَكَراتُ موتِ الدُّنيا وأَجَلُ البَشَرية ومَوتُ الحَيَوان- قد أُخفِيَت كذلك لمَصالحَ كثيرة. إذ لو كان الأَجَلُ مُعيَّنًا وَقتُه، لاخْتَلَّتِ المُوازَنةُ بين الخَوفِ والرجاء، تلك المُوازَنة المَبنيّةُ على مَصالحَ وحِكَم؛ إذ كان نِصفُ العُمُر يَمضي في غفلةٍ مُطبِقةٍ، يَعقُبُه خوفٌ رهيبٌ كمن يُساقُ خَطوةً خَطوةً نحو المِشنَقةِ.

وأَجَلُ الدُّنيا وسَكَراتُها - أي: القيامةُ - يُشبِه هذا تمامًا، إذ لو كان وقتُها مُعيَّنًا، لكانَتِ القُرون الأولى والوسطى غيرَ مُتأثِّرة بفِكرةِ الآخرة إلّا قليلًا، ولا تَنفَعِلُ بها إلّا جُزئيًّا، أمّا القرونُ الأُخرَى فكانت تَعيشُ في رُعبٍ مُستَديم، وما كانت لِتَبقَى -حينئذٍ- للحياة مُتعةٌ وقيمةٌ، ولا للعبادة -التي هي طاعةُ الفَردِ باختِيارِه ضِمنَ الخَوفِ والرَّجاء- أهمِّيّةٌ وحِكمةٌ.

ثم لو كان وقتُ القيامة مُعيَّنًا، لَدَخل قِسمٌ من الحقائق الإيمانية ضِمنَ البَدَهيّاتِ، أي: يُصَدِّق بها الجميعُ سواءٌ أرادوا أم لم يريدوا، ولَاخْتَلَّ عندئذٍ سِرُّ التكليف وحِكمةُ الإيمان المُرتبطانِ بإرادة الإنسان واختيارِه.

وهكذا أُخفِيَت الأمورُ الغَيبيةُ لأجلِ مصالِحَ كثيرةٍ أمثالِ هذه، فصار الإنسانُ يَتوقَّعُ مَجيءَ أَجَلِه كلَّ دقيقة مثلَما يَتوقَّعُ بقاءَه في الدُّنيا، ويُفكِّر فيهما معًا، ويَسعَى بجِدٍّ للدُّنيا سَعيَه للآخرة، ومثلَما يَتوقَّعُ قيامَ السّاعة في كلِّ عَصْرٍ يَتوقَّعُ دَوامَ الدُّنيا فيه أيضًا؛ ومن هنا غدا الإنسانُ مُتمكِّنًا من العملِ للحياة الأبدية وهو يَنظُر إلى فَناءِ الدُّنيا، ويَعمَلُ في الوقت نفسِه لِعِمارة الدُّنيا، وكأنه يعيشُ أبدًا.

ثم إنه لو كان وقتُ المَصائب والبلايا مُعيَّنًا، لتَجَرَّعَ الإنسانُ أذًى وألَمًا مَعنويَّينِ مِن جَرّاء انتظارِه وقوعَ المُصيبة ونزولَ البلاء أضعافَ أَلَمِ المُصيبةِ نفسِها؛ لذا سَتَرَتِ الحِكمةُ الإلهية ورَحمتُها الواسعةُ المَصائبَ، فظلَّت مَخفيّةً عن الإنسان ومَستورةً عنه، فلا يَتأذّى بمِثلِ ذلك الألَمِ المَعنَويّ.

وحيث إن أغلبَ الحَوادث الكونيةِ الغَيبيةِ تتضمَّنُ أمثال هذه الحِكَم، فقد مُنِع الإخبارُ عن الغَيبِ(*). وحتى الذين يُخبِرون عنه بإذنٍ ربّانيٍّ، فقد أَخبروا عنه إخبارًا على صورةِ إشاراتٍ فقط، مع شيء من الإبهام دون الصَّراحة المكشوفة، فيما عدا الحَقائقَ الإيمانيةَ وما هو مَدارُ التكليف، وذلك لئلّا يكون هناك قِلّةُ توقيرٍ وعدمُ امتثالٍ كاملٍ للدُّستورِ الإلهيّ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل:٦٥).

بل حتى البِشاراتُ التي وَرَدَت في حقِّ رسولنا الكريم ﷺ في التوراة والإنجيل والزَّبور، قد جاءَت بشيء من الإبهام وعدمِ التَّصريح، ممّا حدا بأُناسٍ من أهل تلك الكُتُب أن يُؤَوِّلوا تلك الإشاراتِ، فلم يَنعَموا بالإيمان بالرسول الكريم ﷺ.

أمّا المسائلُ التي هي ضِمنَ العقائد الإيمانية فبمُقتضَى

(*) انظر: مسلم، السلام ٣٩؛ الترمذي، الطهارة ١٠٢؛ ابن ماجه، الطهارة ١٢٢.

حِكمةِ التكليفِ بحاجةٍ إلى تَبليغٍ أمينٍ ووُضـوحٍ تامٍّ وصراحةٍ كاملة وتَكرارٍ، لذا فصَّل القرآنُ الكريم ومُبَلِّغُه الأمين ﷺ وبَيَّنَا بيانًا وافيًا أُمورَ الآخرة؛ في حينِ أنهما ذَكَرا الحوادثَ الدُّنيوية المُستقبَليةَ ذِكرًا مُجمَلًا.

﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

* * *

فهرس الكتاب